

MAC 811 - 41/05



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب

والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها



ابن خلدون شاعرا

رسالة لنيل شهادة الماجستير

في الأدب المغربي القديم

إشراف :

الأستاذ الدكتور : محمد من قاض

إعداد الطالبة :

محسن وردة

السنة : 2003 هـ / 1424 هـ

كلمة شكر

إذا لم يكن بُد من كلمة يجب أن تقال في مقدمة هذه الرسالة ،
فإنها كلمة شكر و اعتراف أتوجه بها ألي أستاذي الدكتور محمد مرتاض
الذي ما انفك يشجني علي متابعة الدراسات العليا ، ويغريني بالبحث الجامعي .
واجدد له الشكر علي متابعته لهذه الرسالة ، واعتنائه بها
قراءة، وتصحيحا ، وتقويما ، وعلي صبره وتواضعه الجمّ طوال رحلة
الإشراف .

ولا يفوتني ، في هذا المقام أن اقدم شكري الخالص ، لأستاذي
الدكتور محمد محي الدين الذي أشار علي بموضوع هذه الرسالة ، ونبهني إلي
ضرورة البحث في شعر ابن خلدون الذي ظل مغفلا لم تطرقه يد الدراسة
بعد .

ولا انسي شكري لكل أساتذتي الآخرين الذين ساعدوني ، علي
إنجاز هذه الرسالة من قريب أو من بعيد .

مقدمة

المقدمة :

إن موضوع هذه الرسالة هو : " ابن خلدون شاعرا " . وقد يبدو غير مألوف للوهلة الأولى ، أو غير مستساغ لدى الجمهور العريض من القراء و الذين لا يعرفون ابن خلدون إلا من خلال " المقدمة " و " التاريخ " . ولم يكن ابن خلدون في هذين المؤلفين شاعرا على الإطلاق ، ولا نخال أنه يكون قد أشار إلى شيء من شعره من قريب أو من بعيد على الرغم من أنه قد تحدث في " المقدمة " عن موضوعات شعرية وعن علوم وفنون أخرى مختلفة .

بيد أن هذا الاستغراب سرعان ما يزول عندما يعرف القارئ أن ابن خلدون قد ألف كتابا سماه " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا " ، عرف فيه بنفسه ونسبه ، وتحدث عن نشاطه السياسي ، وملوك عصره وأبرز أحداثه . ولم ينس أن يذكر في هذا الكتاب بعض شعره . ومن ثم ، يمكن أن نعد هذا اعترافاً بشاعرية مغربية كادت أن تتلاشى في طي المجهول لو لم يتداركها الشاعر نفسه ليحفظها من الضياع .

ولا نظن أن ابن خلدون يمثل من هذه الناحية ظاهرة فريدة ، لأن تاريخ الأدب العربي يحتفظ ، ولا شك ، بأسماء شعراء كثيرين ممن لم يعرفهم قراؤه ودارسوه ، وما يمتاز به ابن خلدون قد لا يكون عند غيره ، وهو كونه عالما مشهورا قبل أن يتاح لنا أن ندرسه على أنه شاعر مغمور .

ولا نزع أن هذه الدراسة قد تضيف إلى ابن خلدون شهرة أخرى ، وإن كانت غايتنا الأولى هي أن تكشف عن جانب آخر من جوانب إبداعه . وهذا هو الدافع الأول الذي نبرر به اختيارنا لهذا الموضوع ، فقد ظل ابن خلدون الشاعر مجهولا ، محتاجا إلى من يغربل شعره من مصادره التي ذكر فيها . ونحن ، إذ نجعل هذه المهمة غايتنا ، فإنما نصدر في ذلك عن اقتناع بأنه ليس سوى واحد من هؤلاء الشعراء المغاربة المغمورين الذين مازالوا ينتظرون من يزيح النقاب عنهم ، ويعرف القراء بهم .

هذا وقد كان كتاب " التعريف " هو المصدر الأصلي الذي استقيناه منه شعر ابن خلدون ؛ غير أن الذي يجدر ذكره هو أن المؤلف اقتصر في هذا الكتاب على ذكر بعض قصائده فقط ، ولم يذكر قصائد أخرى ، إما لأنها غابت عن حفظه كما يقول ، أو لأنه أهملها لعدم مناسبتها للغرض الذي ألف من أجله كتابه . ومن ثم تكون قد ضاعت ولا سبيل للعثور عليها . ويجب أن نشير في هذه المقدمة إلى أن بعض شعر ابن خلدون قد ذكره صديقه ابن الخطيب في كتابه " الإحاطة " ، ولم يذكره ابن خلدون في " التعريف " ، بينما أورده المقرئ - نقلا عن " الإحاطة " - في كتابه " نفخ الطيب " الذي أفرد أجزاء منه لحياة ابن الخطيب وأدبه . فتكون بذلك هذه المؤلفات الثلاثة هي المصادر التي اعتمدنا عليها في جمع شعر ابن خلدون .

ولا بد أن نعترف هنا بأن القصائد التي جمعناها في آخر هذه الرسالة قد لا تكون ديوانا ، ولكنها - في تصورنا - تكفي لرسم ملامح شاعرية ابن خلدون

مع الإشارة إلى أن شعره الذي لم يصلنا لا يغير من جوهر هذه الشاعرية ، ولا ينفي بعض الأحكام التي خرجنا بها من قراءتنا لشعره المدون في المصادر التي ذكرناها . ولعله طرق أغراضاً أخرى لا صلة لها بحياة الملوك والسلاطين الذين كان يخاطبهم . ومهما يكن من أمر هذا الشعر الذي ضاع ، فإن الحديث عنه قد يكون من باب الظن والتخمين ليس إلا .

ولم يكن إنجاز هذه الرسالة بالأمر الهين علينا ، إذ لم نعثر في طريق هذا البحث على عمل آخر اتخذ من شعر ابن خلدون موضوعاً له ، ولا على دراسات سابقة ، قديمة أو حديثة ، تناولته من جانب أو من آخر ، لذلك انصب اهتمامنا على النصوص قصد دراستها لمعرفة خصائصها ومميزاتها ؛ وفي ضوء مراحل الدراسة توصلنا إلى الاستعانة بالمنهج التحليلي الذي نراه ملائماً لخطوات الموضوع ، مع عدم إغفال مناهج أخرى مما يمكن وصف المناهج المطبق بأنه متكامل أو شبه متكامل ، لأن الباحث كثيراً ما تغيب عن ناظرة خطوات هذا المنهج وهو منشغل بمسألة من مسائل بحثه ، ثم إن اتباع منهج معين قد يحدد بعض نتائج البحث قبل إنجائه، ويسد أمام الباحث منافذ الإبداع. لذلك لا نزع أننا قد التزمنا بمنهج واحد ، وتقيدنا بخطواته لا نحيد عنها ، في هذا البحث ، وانطلاقاً من هذا الاختيار ، فقد رأينا أن نقسم الرسالة إلى فصول أربعة :

لقد بحثنا في التمهيد ، عن شعرية ابن خلدون .

وفي الفصل الأول تناولنا غرض المدح عنده من خلال قصائد مدح بها بعض الملوك المغاربة مع إشارتنا إلى خصائص هذا المدح وتوضيح معالمه .
أما الفصل الثاني فقد أفردناه لغرض الاعتذار والاستعطاف عند ابن خلدون .

وجعلنا الثالث خاصا بالشوق والحنين في شعره .

أما الفصل الرابع والأخير فقد خصصناه للمقومات الفنية التي اتسم بها شعر ابن خلدون . وذلنا البحث بخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع وفهرس المواد ، وعسى أن نكون قد وقينا الموضوع المطروق بعض حقه .
والله ولي التوفيق .

تمهيد

الوجه الثاني لابن خلدون

تمهيد :

لن نتناول في هذا البحث ابن خلدون مؤرخا ولا عالم اجتماع ، فابن خلدون المؤرخ العالم معروف عند دارسيه، و مقتول بحثا ؛ لا يكاد ينازعه في شهرته علم آخر من أعلام العرب قدامى كانوا أم محدثين . بل سنحاول أن نبحت في شخصية هذا الرجل الفذ من خلال الحديث عن ملامح شاعر مغمور لا يكاد يعرفه إلا جمهور قليل من خاصة الدارسين أو الملمين بشعر المغرب القديم، على الرغم من أن له شعرا ينافس به شعراء المشرق والمغرب ، ويقف معهم في ساحته على قدم المساواة . تلك ظاهرة ليست فريدة، بل هي موجودة عند كثير من علماء العرب قدمائهم ومعاصريهم . ولم يكن ابن خلدون بدعا منهم مادام الشعر ميزة كانت أقرب إلى فطرة العربي ونفسه من غيرها مما تجود به القريحة ويبدعه الفكر .. إننا قد نجد في شخص واحد جانبين مختلفين من الإبداع . وقد يكون الاختلاف بينهما طفيفا كما هو الشأن في الإبداع اللغوي ، وقد يكون بيّنا إذا تجاوز الإبداع دائرة اللغة إلى ميادين الفكر الأخرى .. وفي الأغلب الأعم يطغى جانب واحد على الجانب الآخر أو على الجوانب الأخرى إذا تعددت، ويصبح ملازما للشخص ملازمة الظل لصاحبه ، معروفا به مقترنا بسمعته .

لقد قيل عن ابن خلدون ومقدمته وتاريخه الكثير، لكن الذين كتبوا عنه مؤرخا ومبتكرا العلم الاجتماع لم يقولوا عن شعره شيئا ؛ لأنهم كانوا

يبحثون فيه عن غايات لا علاقة لها بالشعر على الإطلاق ، ولو
التمسنا منهم ذلك لكان أدعى إلى السخرية والاستهزاء .. نقول لقد كتب عن
مقدمة ابن خلدون الكثير حتى أنه ليصعب أن نحاول كتابة شيء عنه ولا
نشعر بأننا قد سبقنا إليه ... غير أن الكتابة عن شعره تبدو أكثر صعوبة
وأدعى إلى التأنى والحذر ، فليس للرجل ديوان يعتمد عليه . ولا كتب عن
شعره شيء يمكن العودة إليه غير ما صرح به هو في كتابه " التعريف " .
وتبدو هذه الازدواجية (في الإبداع) عند ابن خلدون متسمة بشيء
من الغرابة غير معهود عند غيره . فالرجل ألف كتابا مهما في التاريخ
قدم له بكتاب في علم العمران والاجتماع البشري سماه المقدمة وختمه
بكتاب تحدث فيه عن نفسه فكان ضربا من السيرة الذاتية . سماه
"التعريف بابن خلدون" . وفي هذا المؤلف الأخير جمع شعره ، أو قل لم
يجمعه وإنما ذكر بعضه مقرونا بمناسباته والأحوال التي كانت تدعوه
إلى نظمه . لقد سجل ابن خلدون في هذا الكتاب بعض شعره ولم يسجله
كله . ولعله لم يذكر فيه إلا القليل منه ، وهنا يكمن وجه الغرابة : فلماذا
اكتفى بذكر جزء يسير من شعره على ما فيه من جودة وإتقان ، وترك
أغلبه يضيع ويفلت من قبضة التاريخ ؟

لقد كان ابن خلدون فقيها مالكيا ، بل غدا إماما للمالكية عند إقامته
بديار مصر . وكان أشعري العقيدة منتصرا لزعيمها أبي الحسن الأشعري ،

مقرا بمذهبه ضد خصومه المعتزلة على ما يذكر في المقدمة . وعندما نعرف أنه قد اجتمع في شخصه تشدد الفقه المالكي وورع العقيدة الأشعرية مضافا إليهما ما كان يتحلى به من أخلاق التواضع وصفات الأدب ، ندرك إلى أي مستوى كان الرجل متحرجا من قول الشعر، مترددا في إظهاره أمام الناس ، ولعله كان يأبى أن تلحق به صفة الشاعر لما في هذه الصفة مما قد لا يتناسب ومقامه الديني من وجهة ، ومنصبه السياسي من وجهة أخرى . فكثيرا ما أُلصقت بالشعراء صفات المجون واللهو وما يتصل بهما مما لم يكن أحد في مقام ابن خلدون وسماعته يرغب في أن يقترن به ، ونحن نعرف أن معظم شعر الأندلس كان لهوا ومجونا ، وهو ما دفع ببعضهم إلى عدّه أحد أسباب سقوط حضارة العرب في الأندلس . وابن خلدون نفسه يعترف في " التعريف " بأنه قد نسي كثيرا من شعره يعد بعشرات الأبيات أو بمئاتها ، وأن ما دوّنه في هذا الكتاب هو ما ظل عالقا بذاكرته فقط .

فنحن أمام شاعر لا يريد أن يكون شاعرا ؛ إنه شاعر بالقوة وليس شاعرا بالفعل على حد تعبير أرسطو .. فالقوة كمون هذه العبقرية الشعرية فيه ، وأما الفعل فلم يظهر منه إلا القليل . لكنه القليل الذي يقوم مقام الكثير ، نستهدي به في دراستنا لهذا الجانب من إبداع هذا الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في الشرق والغرب ، وأسأل الحبر الكثير بكل اللغات .

لقد كان الشافعي شاعرا وما عُد من الشعراء ، ونظم الغزالي شعرا
وما اعتبر منهم . فقد غلب على الأول الفقه وطغى على الثاني التصوف .
وقد نظم العقاد شعرا كثيرا في دواوين مختلفة الأغراض
والموضوعات ، وبالرغم من ذلك اشتهر عند الناس بكتاباتهِ النثرية في
الفكر والنقد والأدب حتى اضطر تلميذه زكي نجيب محمود إلى أن يترجم
بعض شعره إلى الإنجليزية وأن يكتب عنه مقالا طويلا يعرف القراء
بشاعريته . وكان طه حسين قد اقترحه لإمارة الشعر بعد وفاة شوقي .
على الرغم من ذلك ظل العقاد ، صاحب " العبقريات " كما ظل ابن
خلدون في نظر المهتمين بشؤون الفكر صاحب " المقدمة " وصاحب
" التاريخ " . إن الكثرة ليست مقياسا ، وقد كان في شعراء الجاهلية من هم
مقلون ولكن عُدوا من المجيدين في ميزان النقد كما ذكر ذلك ابن رشيق
في كتابه " العمدة " وغيرهم من النقاد العرب القدماء .

وقد يعنّ لأحد أن يقول إن شعر ابن خلدون قد كان كله في مدح
السلطين واستعطافهم ووصف مآثرهم ، وتلك شيمة كثير من شعرنا
عَدّها البعض عيبا ينتقص من قيمة هذا الشعر ويجعل منه شعرا
" مناسبات " كما قيل عن شعر المتنبي وشوقي وغيرهما . بيد أن شعر
هؤلاء لم يكن في الحقيقة سوى شعر نابع من البيئة التي عاشوا فيها بعضا
من حياتهم وقضوا فيها ردحا من الزمن ، فلا يستغرب إذن أن توحى إليهم

تلك البيئة ببعض هذا الشعر ، وأن تكون لهم دافعا للإبداع . فالشاعرية لا بد لها من أن تتأثر ببيئتها سواء كانت تلك البيئة قصرا أو صحراء أو غيرها .

ولا نستبعد أن يكون ابن خلدون قد تغنى بشعره غناء الشاعر الفرح أو الحزين ، وقد وضع الشعر ، أصلا ، لهذا الغرض قبل أن يوضع لغيره :

تَغَنَّ بالشعر إما أنت قائله

إن الغناء لهذا الشعر مضمارة .

بل نحن نكاد أن نكون على يقين من أنّ نفسه كانت تحدثه بالشعر في خلواته وساعات همومه ونكباته . نستشف ذلك من خلال قصائده التي نظمها في مواقف مختلفة من حياته . فهو مادحا أو مستعظفا ، لا ينسى نفسه أبدا ، بل هو يذكر طموحها وآمالها ، وبيكي خيبتها وأحزانها . وإذا كان هذا الغناء مصحوبا بمدحه لهذا السلطان أو ذاك فإن ذلك لم ينقص من قيمته الفنية ، ولم يقلل من تأثيره على القارئ . إذ لم يكن هذا المدح عنده سبيلا من سبل التكسب والاستجداء كما عهد عند غيره من الشعراء ، وإنما يمكن أن نقول عنه إنه كهذا الشعر الذي تبعثه المودة بين الصديقين ، وأحيانا يكون هذان الصديقان شاعرين ، أو

فلنقل إنه هذا التعبير الجميل عن المودة و الوفاء . ولم يكن شعر ابن خلدون كله - أو على الأقل هذا الشعر الذي نجده في كتاب " التعريف " - مدحا ، بل نحن نجد فيه الاعتذار والمواساة والنسيب ، والاستعطاف ، وما يتخلل ذلك مما لا يدخل تحت غرض معين من أغراض الشعر التقليدي .

ولم يكن شعر ابن خلدون وليد موطن واحد ، فقد كُتب لصاحبه الترحل والعيش بعيدا عن أهله ، فأتيح لهذا الشعر أن يكون مهاجرا في مدن المغرب الكبير ، كما أتيح لبعضه أن يصدر من أرض المشرق والأندلس ، يعبر عن حال صاحبه وعن أحوال الساسة خارج موطنه . فهو، من هذه الناحية يجمع بين الفن والتاريخ ، كما جمع بينهما المتنبي عندما كان يصحب سيف الدولة في حروبه مع الروم .

إن ابن خلدون ، في اعتقادنا ، يدخل مملكة الشعراء بنفس البطاقة التي دخل بها المتنبي وأبو فراس وأبو العلاء. وهو على قلة شعره ، يكاد يبلغ شأوهم لولا ضياع أغلب هذا الشعر الذي لو أتيح له أن ينجو من الضياع لكان لنا سندا في تأكيد هذا الحكم الذي أصدرناه .

لقد حاولنا أن نبحت في هذه الرسالة عن الوجه الثاني لابن خلدون . وقد وجدنا أن لهذا الوجه ملامح تختلف عن ملامح الوجه الأول : وجه العالم المؤرخ ، ولا تحمل منها إلا أثرا ضئيلا . ولسنا هنا لنفاضل بين شخصيتي ابن خلدون : شخصية العالم وشخصية الشاعر . إن الواحدة منهما لا تلغي الأخرى ، بل تضيف إليها وتكملها ، وإن كانت الأولى لتطغى كثيرا على الثانية ، فقد كتب ابن خلدون المقدمة والتاريخ ، وحرص عليهما كل الحرص حتى وصل إلى أمان في أيدي القارئ ، وبلغا من الشهرة وذيوع الصيت ما بلغاه في الشرق والغرب ، ولكنه لم يحرص على شعره حرصه على نثره . فلم يجمعه في ديوان مستقل ، ولا بذل جهدا من أجل الحفاظ عليه ، فيكون ، لو فعل ذلك ، قد وقّر عينا كثيرا من المشقة والجهد . بل إنه لم يهتم به اهتمام الشعراء بأشعارهم ، وإنما ترك لذاكرته مهمة الاحتفاظ به ، فلم تحتفظ إلا بجزء يسير منه . وإنما ليأخذنا الاستغراب عندما نجده يصرّح في " التعريف " بأنه قد أنشد هذا السلطان أو ذاك قصيدة يفوق عدد أبياتها المئتين ، ولم يبق في حفظه منها إلا بضعة أبيات ! ولعله لم يحظ من الذكر إلا ببعض الإشارات التي وردت من علماء وفقهاء عاصروه وشهدوا له بالنبوغ وحسن السيرة .

وما دام ابن خلدون لم يجمع شعره بنفسه ، فنحن لا نتوقع أن

يكون غيره قد قام بهذه المهمة ، أو فكر في القيام بها ما دام هذا

الشعر قد ضاع أغلبه بموت صاحبه . ولعل الإشارات لسليحية إلى شعر ابن خلدون هي تلك التي أوردها الوزير الشاعر ابن الخطيب . عندما ترجم له ، وذكر بعض أشعاره .

وقد عاصر ابن الخطيب ابن خلدون والتقى به عندما زار الأندلس عند السلطان ابن الأحمر .⁽¹⁾ وقد كانت بينهما صداقة ومراسلات ، إلى أن فر ابن الخطيب من الأندلس إلى المغرب حيث قتل في سجنه بفاس .⁽²⁾ وليس من شك في أن ابن الخطيب كان معجبا بشخصية ابن خلدون كل الإعجاب ، واضعا إياه في منزلة من الإجلال والاحترام ، ويبدو ذلك واضحا من رسائله التي كان يبعثها إليه في شتى المناسبات ، ملقبا إياه بالصدر الأوحده ، والعالم الفاضل ، وما يتصل بذلك من الصفات .⁽³⁾ وذلك هو الدافع الأول الذي حمل ابن الخطيب على ذكر أشعار ابن خلدون في مؤلفه .⁽⁴⁾ ولم يقصر ابن خلدون في حق ابن الخطيب . فأورد كثيرا من رسائله وأشعاره ، وضمنها كتابه " التعريف " ، وإن كان بعضها غير مناسب للغرض الذي وضع من أجله هذا الكتاب ، بل إنه

(1) أورد ابن خلدون تفاصيل هذه الرحلة في " التعريف " ص 84 . 99 .

(2) التعريف ، ص 244 .

(3) المصدر نفسه ، ص 139 .

(4) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق عبد الله عنان ، القاهرة . دار الخانجي . المجلد الثالث . ص 509 - 518 .

أفرد له فيه فصلا كاملا سماه : " فضل الوزير ابن الخطيب " ووصفه بكونه " آية من آيات الله في النظم والنثر " .⁽¹⁾ ومن ثم قد يكون ابن الخطيب أول من سجل بعض شعر ابن خلدون في مؤلفه ، بالرغم من أن صاحب " التعريف " لم يذكر بيتا واحدا من شعره في تلك الرسائل التي كان يجيب بها على رسائل ابن الخطيب .

وقد أورد المقرئ أبو العباس 986 - 1041 هـ . / 1576 - 1632 م

ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون وفيها بعض أشعاره .⁽²⁾ ويقول

الأستاذ محمد بن عبد الكريم :

" ومن نصوص نثر ابن الخطيب التي أوردتها المقرئ ... نص

ترجمته أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ، بعد رسائل مطرزة بأبيات شعرية

كتب بها إلى ابن خلدون المذكور ، وأورد له - أثناء ترجمته إياه -

جملة من أشعاره . ثم يتحدث المقرئ عن ابن خلدون معتمدا على

نصوص بعض العلماء والمؤرخين تتعلق بأخبار المتحدث عنه " ⁽³⁾

(1) التعريف : ص 167 .

(2) المقرئ ، نفح الطيب .. تحقيق إحسان عباس ، بيروت

دار صادر ، 1988 ، المجلد السادس ، ص 180 - 191 .

(3) محمد بن عبد الكريم : المقرئ وكتابة نفح الطيب . بيروت ،

دار مكتبة الحياة . دون تاريخ ، ص 375 .

وقد ذكر ابن الخطيب كثيرا من مؤلفات ابن خلدون في مختلف العلوم النقلية والعقلية ، لم يصل إلينا منها شيء ، ولعل بعضها ما زال مخطوطا لم يتح له أن يطبع بعد . ومدح نثره ورسائله السلطانية ، أما شعره فقد قال فيه " وأما نظمه فنهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوؤه ، وهان عليه صعبه فأتى منه بكل غريبة " . (1)

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن ابن الخطيب قد ذكر في الإحاطة أشعارا لم يذكرها ابن خلدون نفسه في التعريف . ولا يساورنا شك في أنها من ذلك الشعر المنسي الذي غاب عن ذاكرته ، وكان ابن الخطيب قد احتفظ به . ومنه تلك القصيدة العينية التي خاطب بها عمر بن عبد الله وزير ملك المغرب . (2)

وأورد المقرئ شهادة الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي الذي التقى بابن خلدون في مصر ، وسمع منه :

" وكنت أكثر الاجتماع به في القاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ،

(1) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي ، 1975، ص ، 510-518 .

(2) وفيها الشكوى من الزمان والوشاة ، والافتخار بنفسه وهمته . ومنها الأبيات

يا سيد الفضلاء دعوة مشنق	نادى لشكوى البث خير سميع .
أنى أضام وفي يدي القلم الذي	ما كان طبعه لهم بمطيع ؟
ولي الخصائص ليس تأبى رتبة	حسبي بعلمي ذاك من تفرعي

ويورد من نظمه ونثره ... ولقد كان ابن خلدون هذا من أعاجيب
الزمان ، و له من النظم والنثر ما يزرى بعقود الجان ، مع الهمة العلية ،
والتبحر في العلوم النقلية والعقلية. وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة 808
هـ. " (1)

ومن المعاصرين قلةٌ تحدثوا عن شعر ابن خلدون ممن أرخوا
للأدب العربي القديم . لم يكن حديثهم عنه إلا من باب الإشارة والتبويه
ليس إلا ، وكان صفة الشاعر ، لو ألحقت به وأضيفت إليه ، لأفسدت
صورته في أذهان من يعرفونه عالما ومؤسسا لعلم العمران ، أو
لحزحت مكانته في قلوبهم ، كما لو أن الشعر لا يجتمع ومظاهر
النبوغ الأخرى في شخص واحد ، إلا وكان مدعاة للاستغراب . ومن
هؤلاء المعاصرين الذين أشاروا إلى شعر ابن خلدون محمد الطمار الذي
تحدث عن مقدمته وتاريخه وموضوعهما ، ثم ختم حديثه بإشارة
مفاجئة إلى أن لابن خلدون شعرا، يقول :

" ويثبت لنا التاريخ أن لعبد الرحمن شعرا " (2).

(1) المقرئ ، نفخ الطيب ، المجلد . 6 . ص 192 .

(2) محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، الجزائر ، الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع ، دون تاريخ ، ص 213 .

وبعد هذه الجملة الوحيدة ، يورد محمد الطمار أربعة أبيات من قصيدة نظمها ابن خلدون لتهنئة السلطان أبي حمو بعيد الفطر ، دون أن يشير إلى المصدر الذي استقاها منه. ثم يحكم على هذه الأبيات بقوله :

" فهذا شعر لا بأس به ولكن ليس فيه ما يميز ابن خلدون عن سواه من الشعراء ، وما يكسبه شهرة . فالشهرة التي يتمتع بها في العالم الأجمع ترجع إلى كونه مؤرخا ، شخصيا في آرائه وأديبا شخصيا في إنشائه " (1).

ويبدو أن محمد الطمار لم يكلف نفسه مشقة البحث عن بقية أشعار ابن خلدون في التعريف أو في غيره . ولو فعل ذلك لكان له داعيا إلى أن يغير هذا الحكم ، أو يتأنى قبل إصداره .

ومن هؤلاء المعاصرين أيضا رابح بونار الذي ألف في تاريخ المغرب وثقافته ، وأورد في كتابه (2) رأيا نقديا لابن خلدون مفاده أن أدب المغاربة على العموم ضعيف ، نازل الدرجة عن أدب الأقطار الإسلامية الأخرى . ولم ينبع من المغاربة في الشعر والكتابة إلا قليل

(1) المرجع نفسه ، ص 213 .

(2) رابح بونار ، المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ، الجزائر .
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981 . ط 2 . 398 صفحة.

كابن رشيق وابن شرف ... ولم تنزل طبقتهم في البلاغة إلى الآن مائلة إلى القصور. (1) وذهب رابح بونار إلى أن رأي ابن خلدون في أدب المغاربة متعسف ، وفيه تحامل كبير ، بل تجاهل لمن نبغ من شعراء المغرب وهم كثيرون . و لو كان هذا المؤرخ لأدب المغرب مطلعاً على شعر ابن خلدون نفسه لا اتخذ حجة في الرد عليه ، وإبطال حكمه ، ولو جد له مكانا بين الشعراء الذين ترجم لهم في كتابه . وقد يكون ابن خلدون على جانب من الصواب في هذا الحكم الذي أصدره على أدب المغاربة ، غير أن الذي نستغربه هو أن بعض الذين درسوا ابن خلدون من جانبه الأدبي لم يدرسوا إلا آراءه النقدية في اللغة والأدب ، وما التفتوا إليه شاعرا . وقد أفرد الدكتور عبد الله شريط في دراسته للفكر الأخلاقي عند ابن خلدون (2) فصلا تحدث فيه عن آرائه في الأدب وعلاقته بالأخلاق السياسية ، وعن الشعر العربي وقيمه التي انحطت عندما أصبح مدحا واستجداء ، وابتعد عن مطامحه الحقيقية ، ورسالته النبيلة ولم يشر الكتاب إلى أن ابن خلدون نفسه الذي انتقد الشعر العربي ، والمدح بصفة خاصة ، كان شاعرا ، وكثير من شعره مدح . ولكن يبدو أنه لم يطلع على كتاب " التعريف " الذي وردت فيه أشعار ابن

(1) المرجع نفسه ، ص 290 ، 291.

(3) عبد الله شريط : الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1975 . ص 605 - 643 .

خلدون . ومن ثم لم يكن من الممكن أن ننتظر منه مثل هذه الإشارة .
 ولم يفت عبد الرحمان مرحبا ، وهو يؤرخ للفلسفة الإسلامية أن
 يجعل ابن خلدون من أبرز ممثليها ، وأن يذكر ، وهو يتحدث عن تكوينه
 وصفاته العلمية ، أنه كان شاعرا . ولكنه ، في اعتقاده ، لم يكن شاعرا
 مطبوعا ، فالشعر ليس ملكا له (1) .

إن كل ما ذكرناه لم يكن سوى إشارات قصيرة إلى شاعرية ابن
 خلدون ، وبعضها لم يكن يتعدى الجملة الواحدة أو الجملتين . ولئن كان
 ذكر هذه الشاعرية عند بعض هؤلاء الدارسين لا يناسب مقام بحثهم ،
 ولا يتطلب الإسهاب فيه ، فإنه عند البعض الآخر كان جديرا بالاهتمام
 والتعمق والدراسة . وليس من شك في أنه قد توجد دراسات في شعر ابن
 خلدون ، هنا أو هناك ، في البلاد العربية ، غير أنه لم يتوفر لنا منها شيء
 نعتمد عليه ، أو نستأنس به في هذه الدراسة . لذلك لا نزرع أننا قد قلنا كل
 شيء عن ابن خلدون الشاعر ، ولا ندعي أن هذه العمل خال من كل نقص ،
 بل هو في اعتقادنا أقرب إلى المغامرة التي يجد الباحث فيها نفسه وحيدا ،
 لا يستهدي بنور من حوله ، ولا يقتفي أثر من سبقه في هذا الميدان .

(1) عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية ، إلى الفلسفة الإسلامية ،

بيروت ، دار عويدات 1883 . ط 3 ، ص 773 .

الفصل الأول :

المدح والتهنئة

في شعر ابن خلدون

إن المدح الممتزج بالتهنئة غرض شعري طرقة شعراء المغرب قبل ابن خلدون وأجادوا فيه ، وإن لم يعن هذا استثناء ابن خلدون ؛ لأنه هو أيضا ترك أكثر من قصيدة تتعلق بالمدح والتهنئة .

وتعد اللامية التي اخترناها نموذجا لغرض المدح عند ابن خلدون من أطول قصائده، أو قل هي أطول قصائده التي سجلها في كتابه " التعريف " ، فهي بالإضافة إلى طولها تمثل المدح عنده أحسن تمثيل.

عندما نتحدث عن هذه اللامية قد يتبادر إلى ذهن المتلقي أنها لامية شبيهة بلامية الشنفرى بالمشهورة بلامية العرب أو لامية الطغراني، الموسومة بـ " لامية العجم "، والواقع أن هاتين القصيدتين لا يجمع بينهما جامع سوى حرف اللام الذي جعله كل شاعر رويا لقصيدته. كما أنه لا يجمع بينهما ولامية ابن خلدون إلا هذا اللام الذي غالبا ما يجعل القصيدة العربية ذات وقع جميل وتأثير على القارئ والسامع معا.

إنها مطولة تذكرنا بالمعلقات لأنها تتجاوز مئة بيت ، يغلب على بعض أقسامها نفس ملحمي هو أقرب إلى روح قصائد المتنبي التي وصف فيها حروب سيف الدولة ومعاركه، ويذهب ابن خلدون . أحيانا

في هذا الوصف مذهبا بعيدا فيتسامى بممدوحه إلى ما بلغه المنتبى بسيف الدولة.

إن هذه القصيدة في عمومها مدح للسلطان أبي العباس سلطان تونس. والشاعر نفسه يمهد للقارئ الطريق كي يستكشف ظروفها ومناسبة نظمها. فهو مادح من جهة، بكل ما يقتضيه المدح من ذكر حميد الصفات ، وجميل الشمائل ، ومبشر بكتاب " العبر " الذي ألفه ليهديه الأمير من جهة أخرى ، ثم معتر للقصير شعره عن الإمام بكل صفات الأمير . فالقصيدة من هذه الناحية تختلف عن قصائد المدح التي نعرفها في الأدب العربي . فما هو بالمتكسب ، ولا هو بالطامح إلى غاية يريد أن يحققها بوساطة هذا الشعر .

ولعل هذه القصيدة لم تكن سوى " فلتة لسان " سمحت بها ظروف معينة اجتمعت على الشاعر وأرغمته على نظمها فسجلها التاريخ. ولولا هذه الظروف لما وقفنا منها على أثر يذكر .

وقد شرح ابن خلدون نفسه أسباب نظمها لهذه اللامية ، ولم يكن من عادة الشعراء، قديما، أن يقدموا لقصائدهم بمثل هذا التقديم الموجز المعين على الفهم بل إنه ليذهب إلى الفصل بين بعض أقسامها بكلام يعين به القارئ على

فهم بعض رموزها ، ويوضح بعض ما يراه مستعصيا عليه أو غامضا يحتاج إلى توضيح .⁽¹⁾

إن هذه القصيدة جزء من سيرة الشاعر التي عرضها في " التعريف " وهي تأخذ مكانها في هذا الكتاب كما تأخذه حوادث التاريخ التي سردها المؤرخ الشاعر ، وكانت لها صلة قوية به أو بالمحيط القريب الذي ينتقل فيه . وهنا تكمن قيمة أخرى لها غير قيمها التي سنذكر بعد حين . أجل إن لهذه اللامية قيمة تاريخية بقدر ما تعبر عن حقائق وقعت في زمان لها ومكان محددين ، وأبطالها أشخاص موصوفون يذكرهم التاريخ بأسمائهم فهل يستمد الشعر إذا قيمته من الموضوع الذي يعالجه ، ويغض الطرف عن جانب التعبير وصور الخيال منه أو كما يمكن أن نسميه جانب الفن فيه ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإنه يمكن القول أن كل أنواع العلم هي مواضيع للشعر ونهمل كل المشاعر والأحاسيس التي يجب أن تصاحبه وما يترتب عليها من بديع الصور وجميل التعابير و تحليقات الخيال .

(1) مثل ذكر أسماء بعض الوقائع ، أو أسماء بعض الأبطال ... أنظر:
التعريف بابن خلدون : بيروت ، دار الكتاب اللبناني . 1979 ص . 252 .

وحيث سيستوي الشعر وكل أنواع القول وأشكال التعبير الأخرى باعتبار أنها ستقف من حيث مضامينها حينئذ على قدم المساواة ، لا فرق بينها على الإطلاق . غير أن ابن خلدون في هذه القصيدة لم يجعل الشعر تاريخاً و لا التاريخ شعراً ، بل كان شاعراً بما تحمله هذه الكلمة من معاني الشعر ، وما تقتضيه من طرائق التعبير عنه . ولئن ترك على أبياتها أثراً من روح المؤرخ فذلك ، بمقتضى الحال ، أمر لا يستغرب ممن اشتغل بالتاريخ واستخلص العبر من حوادث الزمان ووقائع البشر . غير أن ذلك لا يخرجها من دائرة الشعراء .

ولعل ما يلفت انتباه القارئ أن ابن خلدون ، وهو يقدم لهذه القصيدة ، يشير إلى أنه قبل نظمه لها كان قد أهمل الشعر وانتحاله جملة ، وتفرغ للعلم فقط (1) . ولكنه لا يذكر الأسباب التي حملته على إهمال الشعر ، ولا يشير إلى شيء من ذلك على الإطلاق . غير أنه إذا لم يكن من الممكن معرفة هذه الأسباب إلا من باب الظن والترجيح ، فإن ثمة شيئاً واحداً يمكن التأكيد منه دونما شك أو ريب ، وهو أن الشاعر كان قد تمرس في الشعر من قبل ، وعرف صناعته وانتحاله ، ثم عن له أن يتخلى عن هذه الصناعة ليتفرغ لهموم فكرية أخرى كانت في اعتقاده أجدى من الشعر .

(1) المصدر نفسه ، ص 250.

ونحن نزداد استغرابا عندما نعلم أن هذا الشعر الذي مارسه من قبل لم يحتفظ به فاستقر في خزانة النسيان . غير أن الشاعرية لا تموت ، ولو أراد لها صاحبها ذلك لما استطاع . فجذوة الشعر و الإبداع بصفة عامة قد تخبو في صاحبها ردحا من الزمن ثم لا تلبث أن تتأجج إذا هبت عليها ريح من هذه الرياح التي تهب على الشعراء فتحيي ما مات في أنفسهم وتوقظ ما هجع من شاعريتهم . ولم يكن ابن خلدون بدعا من هؤلاء ، فها هو ذا يتهم بالتقصير في مدح السلطان ، والاستهانة به ، وإعراضه عن امتداحه فهو يقول : " وكان مما يغرون به السلطان عليّ قعودي عن امتداحه... فكانوا يقولون له إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك ، لكثرة امتداحه للملوك قبلك.."⁽¹⁾ وعندما يتهم الشاعر في شاعريته فإنه يهيب مدافعا عنها ، وينتفض ذاندا عن سمعته حتى يُظهر لأعدائه والواشين به عند السلطان أنه على غير ما اعتقدوا. ولكي ينجح في ذلك عليه أن يفاجئ خصومه بشعر يزيل عنهم الشك ، ويرسخ في أنفسهم اليقين . غير أنه شعر ، إن أَرْضَى السلطان وحاشيته ، فإنه لم يرض الشاعر كل الرضى ، ولم يشف غليله كل الشفاء . فهذه القصيدة على طولها وجمالها ، إن هي في نظره إلا محاولة متواضعة ، بل هو لم يبلغ فيها مبلغ الكمال الذي كان يطمح إليه ، فقد تبلى الأفكار ذرورة نضجها ، ولكن الشاعر قد يقصر في التعبير عنها⁽²⁾ .

(1) المصدر نفسه ، ص 250.

(2) وقد عبر ابن رشيق عن مثل هذه الحالة بقوله "...وربما الشاعر المعنى ، فلم يصل إليه ... لضعف ألتخ " العمدة ، ص 362.

ومن هذا الإحساس بكون القصيدة ناقصة ، يتسرب القلق والاضطراب إلى نفس الشاعر .. فالشعر قد يكتمل في الذهن ولكنه لا يكتمل في الواقع نظرا لقصر الوسيلة المعبرة عنه ، وعجز اللغة عن مسايرة الفكر في جميع نواحيه ، وذلك لارتباطها بالمحسوس ، ومن هنا تأتي محدوديتها . فالشاعر يجدّ ليله في امتراء قريحته واستدراارها ، ولكنه لا يحصل منها إلا على النزر القليل ، ويبيت يعتلج الكلام في خاطره دون أن يحصل منه على طائل . فالنظم شارد ، والقوافي جافلة ، وبنات فكره كليلة تصيب حيناً وتخطئ أحيانا .. وغايته أن يقبلها الأمير ويرضى عنها :

فأببت يعتلج الكلام بخاطري

والنظم يشرد والقوافي تجفل

وبنات فكري إن أنتك كليلة

مرهأء ، تخطر في القصور و تخطل (1)

وفي هذا المعنى نفسه يقول في السينية التي مدحه بها وقد شفي من مرض :

أنحى الزمان عليّ في الأدب الذي

دارسته بمجامع ودروس

فسطا على وفري و روع مأمني

واجتت من دوح النشاط غروسي (2)

(1) المصدر نفسه . ص 257.

(2) المصدر نفسه . ص 261.

واعتقاداً منه أنه مقصر في مدح الأمير، ذهب ابن خلدون يعتذر له عن هذا التقصير .. وهو اعتذار ليس كاعتذار النابغة للنعمان .. أو كاعتذار الحطيئة لعمر. على كل حال، وذلك لأن الشاعر لم يذنب ولم يقترب ما يوجب الاعتذار، وإنما لجأ إلى هذا النوع من الاعتذار تأديباً مع السلطان، وجرياً على عادة العلماء والفقهاء - وهو العالم الفقيه- في مدح الحكام والأمراء، إذ لم يكن هؤلاء يحذون إلا المدح الذي لا مبالغة فيه، ولا يمدحون رغبة في المال، أو طمعا في جوائز الخلفاء.⁽¹⁾

مقاربة تحليلية للقصيد

إن الغرض الرئيس من هذه القصيدة هو المدح. مدح السلطان أبي العباس سلطان تونس. وابن خلدون نفسه يصرح بذلك قبل أن يذكر القصيدة التي أنشدها في حضرة السلطان بعد أن أهدها كتاب " العبر " قبل إنشاده إياها : " فلما رفعت له الكتاب، وتوجته باسمه، أنشدته ذلك اليوم هذه القصيدة امتدحه، وأذكر سيره وفتوحاته، واعتذر عن انتحال الشعر، واستعطفه بهدية الكتاب إليه " ⁽²⁾.

(1) أ.د/ محمد مرتاض. شعر الفقهاء .. رسالة دكتوراه،

جامعة تلمسان 1994. ص 362.

(2) التعريف. ص 250.

يستهل الشاعر القصيدة بسؤال إنكاري ، وكأنما جاء بهذا السؤال ليؤكد للسلطان ، والقارئ من بعد ذلك ، أن بابه هو أهل الغرباء ووجهتهم التي يقصدونها .. وأن بيته هو قبلتهم التي لا يعدلون بها مكانا آخر .. والإنكار أسلوب بلاغي مؤثر طالما لجأ إليه الشعراء لتبليغ ما يريدون تبليغه من صفات الممدوح أو غير ذلك . وكان ابن خلدون هنا منكر أن يكون الممدوح على غير ما وصفه .

ولا يمكن للممدوح أن يكون على هذه الصفات إلا إذا كانت له هذه الهمة التي لا ترضى إلا بجليل الأعمال . وبثت فيه عزما قويا على السعي إلى المكارم والمعالي ، وشحذته حتى أصبح نافذا كالسيف الذي عالجه الصيقل لا ينثني وراء مطلب . فهو بهذه الصفات قد تبوأ منزلة عالية حتى صار للأحلام منتجعا ، وغيثا مدرارا سخيا . فقصوره الزاهرات مرتفعة البنيان شاهقة العلو كأنما تنافس النجوم في عليائها فتستأنس النجوم وتحفل بها نظرا لمشابقتها في العلو . وقد يبدو هذا التشبيه مبالغا فيه ، فأتى للقصور علو النجوم ، غير أنه عندما يأتي في صورته الشعرية يبدو جميلا فلا يشعر القارئ بالمبالغة التي يخفيها جمال الصورة وسعة الخيال ، ونجد مثل هذه الصورة الشعرية عند السموأل بن عاديا الجاهلي عندما وصف جبلا كان لقبيلته :

رسا أصله تحت الثرى وسما به

إلى النجم فرغ لا يُنال طويل .

ومن ثم فإن هذه الصورة مألوفة في الشعر العربي القديم لم يأت فيها

الشاعر بالجديد. يقول :

هل غيرُ بابك للغريب مؤملاً

أو عن جنابك للأماني معدلاً .

هي همة بعثت إليك من النوى

عزما كما شحد الحسام الصيقل.

مُتبواً الدنيا ومنتجع النوى

والغيث حيث العارض المتهلل .

حيث القصور الزاهرات منيفة

تُعنى بها زهر النجوم وتحفل .

والأبيات السبعة التي تلي الأربعة الأولى تبدأ كلها بـ " حيث " وهي

ظرف تدل على مكان إقامة السلطان .. و هو مكان توجد فيه ، إلى جانب

القصور الزاهرات المنيفة ، الخيام التي تترك مفتوحة لاستقبال الضيوف ،

تصون حماها الرماح الصلب ، وتُستشق منها الروائح الطيبة (الكباء

والمندل) يستهدي بها الضيوف وكأنها نار قرى أضرمت لتدلهم على مكانها

ويزين قصور الأمير وخيامه جياد تعبت من شدة ما امتطأها الفرسان
وأغاروا بها على الأعداء .. أما ساكنوها فعلى وجوههم البشر والحياء ،
وليس لهم إلا أن يكونوا كذلك فملوكهم أسياد أعزة من شيعة المهدي زعيم
الموحدين .. بل هم أهل التوحيد أنفسهم .. والتوحيد أساس الدين ودعامة
العقيدة وقد بنوا عليه عزمهم ، واسسوا على تقوى الله مجدهم . وقد ورثوا
الشرف الذي يعود إلى عمر بن الخطاب .. فورثوا عنه جد العمل وحزم
السياسة وحسن التدبير . غير أن هؤلاء الملوك (ملوك بني حفص) وغيرهم
من الأنام وإن بلغوا ما بلغوا من المجد والعلو ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه أبو
العباس :

سام على هام الزمان كأنه

للفخر تاجٌ . بالبذور مكللٌ

فضل الأنام حديثهم وقديمهم

ولأنت إن فضلوا أعز و أفضلٌ

وبنوا على قلال النجوم ووطدوا

وبناؤك العالي أشد و أطول . (1)

(1) التعريف ص 252 .

وبعد ذكر ملوك بني حفص ، ينتقل الشاعر إلى مدح الأمير أبي
العباس مدحا شخصيا ، فيخصص له قسما كبيرا من القصيدة . و يحسن
التخلص في هذا الانتقال لينصح كل مغامر في سبيل الرزق والغنى بأن يريح
نفسه من عنت البحث عن سبيلهما ، وفرسه (ركابه) من خوض غياهب
الليالي وفلوات الفقر ، فإن له في الأمير ما يغنيه عن كل ذلك . ما دام فاتحا
أبواب بيته لكل غريب وطارق ، و ذلك دليل الكرم وحسن الخلق .

و للأمير خصال رجل الدنيا ورجل الدين ، يعود إليه الناس في أمور
دنياهم ودينهم .. وهو مؤمن بالله مستمسك به ، متوكل عليه في مواجهة
أعدائه . وتلك شيمة من شيم الملوك . بيد أنه خير هؤلاء الملوك ، وأقربهم
إلى الكمال ، وأشدّهم بأسا يطيعونه كما دانوا لقومه من قبل :

هذا أمير المؤمنين إمامنا

في الدين والدنيا إليه الموائل

مستنصر بالله في قهر العدا

وعلى إعانة ربه متوكل .

فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا

يتسابقون إلى العلاء ، وأكمل .

ويسترسل الشاعر مادحا أميره ، ولا يلبث القارئ أن يدرك كيف ينتقل من أسلوب وصفي مباشر ، من التقريرية في بعض أبياته ، إلى أسلوب المبالغة والخيال : وما يقتضي ذلك من جزالة اللفظ وفخامته .

جئت الزمانَ حيثَ أعضلَ خطبُه

فافتَرَ عنه وهو أكلحَ أعصلَ ..

والشمل من أبنائه متصدع

وحمى خلافته مضاع مهمل

والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم

ورجوا صلاح الحال منك وأملوا (1)

(1) المصدر نفسه : ص 254 .

إن الزمان كلمة كثيرة الاستعمال في الشعر العربي قديمه وحديثه .
وغالبا ما تدل على حوادثه ومشكلات البشر العويصة . فللزمان خطب ،
وللزمان نوائب وصروف . والأمير جاء زمانا عبوسا ، فاستطاع أن يجعل
عبوسه ابتساما . لقد كانت الخلافة مهددة ، والناس مفترقي الشمل منقسمين
على أنفسهم متمردين على الحكم، مارقين على السلطة ، فعالج كل ذلك
بحكمة وحنكة وبأس ، إلى أن استتب له الأمر ، واستقام كل معوج .. وذل له
كل صعب :

فَعَجَاتِهِ لَمَّا انْتَدَبْتَ لِأَمْرِهِ

بِالْبَاسِ وَالْعِزْمِ الَّذِي لَا يَمْهَلُ

ذَلَّلْتَ مِنْهُ جَامِحًا لَا يَنْتَهِي

سَهَّلْتَ وَعُرَا كَادَ لَا يَتَسَهَّلُ

ويعود الشاعر في ما ينيف عن عشرين بيتا يصف معارك الأمير
مع القبائل المتمردة .. ويذكر أشخاصا بأسمائهم - صولة - دؤيبا ،
مهلهلا ... وأماكن بعينها (أهل الجريد) . إن هؤلاء العرب المارقين
كانوا موغليين في البداوة يروعون الملوك ويقضون مضاجعهم ، كأنهم
جن في العراء ، شرابهم السراب وأرزاقهم الرماح ، لا ينضوون تحت
لواء حاكم ولا يعترفون بسلطة أمير . انبرى لهم أبو العباس فبدد شملهم
وزرع فيهم الرعب والضعف . يقود الكتائب ، ويقتحم الصعاب تحت

قيظ الشمس ، وبين أسنة الرماح ، لا يلوي على شيء في سبيل إقامة
صرح مملكته :

فبدوت لا تلوي على دعة ولا

إلى ظلل القصور تهدل

طورا يضافك الهجير وتارة

فيه بخفاق البنود تظلل

تفري حشا البيداء لا يسري بها

ركب ، ولا يهوي بها جحفل .

حتى تفرق ذلك الشمل الألى

عصفت بهم ريح الجلا د فزلزلوا (1).

(1) المصدر نفسه . ص 255 .

وعلى الرغم من قسوة الأمير على هؤلاء المتمردين ، وقضائه
 على غوايتهم فإنه كان رحيمًا على التائبين مهم رؤوفا بهم ، إذ استمالهم
 إليه ، وأدخلهم تحت سلطته و أغدق عليهم من نعمته .

ثم استملتهم بأنعمك التي

خضعوا لعزك بعدها وتذللوا

ونزعت من أهل الجريد غواية

كانت بهم أبدا تجدّ وتهزل

فكان بذلك متبعا سياسة الحكمة والحزم ، واضعا كلا منهما
 موضعه ، حتى انضوى الأنام تحت طاعته ، وانصاع الطفل والكهل ،
 وشهد له الخاص والعام بالعدل وحسن التدبير ، فأصبحت مملكته آمنة
 ورعاياه مطمئنين وخلافته أفضل خلافة :

بشكيمة مرهوبة وسياسة

تجري كما يجري فرات سلسل

وتطابقت فيك القلوب على الرضى

سيان منها الطفل والمتكهل

يا مالكا وسع الزمن وأهله

دعة وأمنا فوق ما قد أملوا

ويبلغ الشاعر مداه في المبالغة عندما يجعل نور الكواكب مستمدا من نوره الذي هو أجمل الأنوار . وكان الناس لم يكونوا يعرفون عن الخليفة إلا ما سمعوه عنه ، لكنهم عندما اقتربوا منه أدركوا فوق ما كانوا يعلمون . فكان حجابا قد رفع بينه وبينهم فانبهروا ، إذ رأوا حقيقة الخليفة أكبر مما كانوا يتصورون :

وكان أنوار الكواكب ضوعفت

من نور غرته التي هي أجمل

وكانما رفع الحجاب لناظر

فراى الحقيقة في الذي يتخيل⁽¹⁾.

وينتهي الشاعر من هذا المدح الذي يرفع فيه ممدوحه درجات يكاد ينزعه فيها عن صفات البشر الآخرين ليخاطبه في كثير من الأدب والتواضع ، معتذرا إليه شاكيا قصور قريحته وعجزها عن إدراك الحقائق التي تطمح نفسه إلى وصفها ، وعرضها في شعره على الأمير . فهو يجد الليل ، ويسهر أناءه بحثا عن المعاني الشاردة ، غير أن اللغة لا تطاوعه ، والقوافي تنفر منه . وهو بالرغم من ذلك يصنع هذا الشعر في سنة بأكملها مواريا إياه عن أهل هذه الصناعة مخافة أن يعاب عليه شيء منه .

(1) المصدر نفسه ، ص 257.

ويختتم الشاعر هذا القسم من القصيدة بأن يلتمس من الأمير أن
 لا يقبل من هذا المدح على علاته وعيوبه ، وحسبه ذلك فخرا . غير أن هذا
 التواضع أمام الأمير لا يمنعه من أن يذكره بأنه بليغ لا يشك
 في بلاغته:

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت

مني الطباع ، فكل شيء مشكل .

تسمو إلى درك الحقائق همتي

فأصد عن إدراكهن وأعزل

فأبيت يعتلج الكلام بخاطري

و النظم يشرد والقوافي تجفل .

من بعد حول أنتقيه ولم يكن

في الشعر حولي يعاب ويهمل

وبنات فكري إن أتتك كليله

مرهاء تخطر في القصور وتخطل

فلها الفخار إذا منحت قبولها

وأنا ، على ذلك ، البليغ المقول (1)

(1) المصدر نفسه ، ص 257.

و بعد انتهائه من الاعتذار للسلطان، ينتقل الشاعر إلى ذكر الكتاب الذي ألفه ليهديه الأمير ، وهو كتاب " العبر " (1) المعروف بتاريخ ابن خلدون. وكان الشاعر لا يهدي الأمير كتابا وإنما يفضي إليه بسرّ الزمان وأهله ، تاريخ البشر وأسراره . ويكاد يجزم أن ما يحتويه كتابه نفيس لا تضاهي قيمه (2) . والأمير على الرغم من ذلك ، يظل في نظر الشاعر في أعلى رتب المعارف ، مدركا للحقائق ، عارفا لفضل العلم ومكانة العلماء ، و هو إلى جانب كل ذلك اعدل الناس وأقدر الحكام على التكفل برعيته .

(1) إشارة إلى كتابه : كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر الذي كان قد ألفه

في قلعة بني سلامة غير بعيد عن تهرت .

(2) يقول عن محتوى كتابه : " وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أفق على الكلام في

منحاه لأحد من الخليقة " .

مقاربة تحليلية للقصيدة

(1) المعجم اللغوي

يتنوع المعجم اللغوي في لامية ابن خلدون تنوعاً كبيراً . وذلك حسب المقام الذي يكون الشاعر فيه يؤدي معانيه .

فالمشاهد في القصيدة كثيرة ومتنوعة ، ولكل مشهد ألفاظه التي تعبر عنه ، فكأن قارئ هذا النص مسافر مع الشاعر من موضع إلى آخر، عائداً من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر يشرب إلى المستقبل.

وتختلف الألفاظ المستعملة من المجرد إلى المحسوس . كما تتميز - في كثير منها - بالقوة والجزالة عندما يريد الشاعر أن يعبر عن المعاني التي تقتضي ذلك ، فهو في حديثه عن كرم الأمير يستعمل الألفاظ الدالة على هذه الشيمة من خصاله : (الخيام البيض - المكرمات - القرى ..) وهو في مقام الحرب يلجأ إلى ألفاظ القوة ومشاهد القتال : الرماح - الدماء - الوغى المغار - الجياد ..

وقد ركزنا على اللغة نظراً لأهميتها القصوى في بلورة العمل الإبداعي : يقول عز الدين اسماعيل :

" اللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير .
وهي أول شيء يصادفنا ... هي النافذة التي من خلالها نطل ... هي
المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب " (1) لذلك يجدر بنا أن
نستهل دراستنا للامية ابن خلدون بدراسة لغة القصيدة ، حيث يشعر
القارئ بهذه الصلة الوثيقة بين ألفاظ الشاعر ومعانيه ، ومن ثم فقد
اكتسبت ألفاظه صفة الإيحاء و التوضيح ، فلم تكن مجرد رموز ملقاة
على مدلولاتها ، تحتاج إلى سعة خيال وطول تأمل حتى يدرك المتلقي
معانيها ويستأنس بها .

ولعل نجاح الشاعر ، أي كان ، يكمن بعضه في مناسبة ألفاظه
لمعانيها ، فاللفظة التي تختار بدقة وعناية ، وتوضع موضعها من البيت ،
تكون كالحجر الذي جعل في مكانه من البناء ، حيث لا يحتاج إلى صقل
أو تعديل . وابن خلدون في هذه الامية اختار - وهو العالم باللغة العارف
بأسرارها - ألفاظه بتلك الدقة وتلك العناية ، حتى ليعسر على القارئ أن
يستبدل واحدة بأخرى دون أن يخل بالمعنى الذي يقصد إليه ، أو ينتهك
شكل هذا البيت أو ذاك ، كما رسمه الشاعر في خياله . ولا تخوننا الأمثلة

(1) عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ... بيروت

- دار العودة 1981 - ط 3 . ص 173 .

على ما نذهب إليه ، فهذا البيت الذي رسم بهذه الكلمات ، وبنيت

صورته على هذا الشكل:

متبوا الدنيا ومنتجع المنى

والغيث حيث العارض المتهلل .

قد يمكن تعويض إحدى ألفاظه بأخرى تؤدي معناها . ولكنها لن تبلغ ما بلغته ألفاظ الشاعر وتراكيبه (متبوا الدنيا – منتجع المنى ، العارض المتهلل ،) في رسم هذه الصورة التي أرادها للأمير في ذهن القارئ . فقد جعل الأمير متبوا للدنيا ، ومنتجعا للمنى ، وعارضاً متهللاً ، وهي صور استعارها من طبيعة محسوسة ، ووشح بها صورة الأمير ، وقرن بها صفاته .

إنّ الاطلاع على اللغة ، ومعرفة خباياها وأسرارها لا تصنع الشاعر ، ووصف الكلمات وإخضاعها للوزن والقافية لا يصنع شعراً . إنّ كل ذلك يحتاج إلى روح تسري بين أوصال الكلمات وتنبث فيها حياة تتحرك بين ثنايا القصيدة بشتى الصور والأخيلة ، وقد استطاع الشاعر ، بالرغم من انقطاعه عن الشعر ، أن يحرك هذه القصيدة بقاموس لغوي شاعري يدل على أنه قد انتحل الشعر قبل ذلك في شبابه ، غير أن القارئ المتمعن لا يفوته أن يلمس في قاموس الشاعر ألفاظاً

تمت بصلة وثيقة إلى العلم الذي كان الشاعر قد اشتغل به بعد إهماله للشعر . وهو نفسه يقول : "... فإني كنت قد أهملت شعر وانتحاله جملة ، وتفرغت للعلم فقط ... " (1) . ومن هذا العلم أثر غير خاف على معجم القصيدة . ونحن هنا نذكر هذه الألفاظ التي استقاهها الشاعر من حقل " علم العمران " : بدوت - خربت - شادوا - سياسة - ملك - خشونة - بنيان - عبر ... وهي ألفاظ أصبحت عند دارسي فكر ابن خلدون مصطلحات رئيسة للحديث عن البداوة والملك والسياسة والعمران . وما يتصل بها مما عالجه ابن خلدون في المقدمة وكتابه العبر .

والطبيعة في هذه اللامية كذلك حضور قوي . فكثيرة هي الألفاظ التي تعبر عن مظاهر الطبيعة ، أو عن منظر من مناظرها : الغيث - زهر النجوم - الوشيج - يورق - الفلاة - الليل - الروض - ندي - الحصى - الهجير - البيداء - غصنه - تنوقة - الكواكب .

ومن الواضح أن بعض هذه الألفاظ تدل على طبيعة خضراء يانعة، بينما يدل بعضها الآخر على طبيعة قاحلة يباب .

(1) التعريف . ص 250 .

وليست هذه السمة وفقا على شعر ابن خلدون وحده ، فقد كانت بعض

خصائص الشعر المغربي الأندلسي بصفة عامة . فقد حمل هذا الشعر كثيرا

من وصف الطبيعة وإعجاب الشعراء 1 في حين قل ذلك في شعر

المشرق أو كان مبنوئا فيه ، موزعا في ثناياه لم تقرد له قصائد خاصة . كما

فعل ابن خفاجة في وصفه للجبل (1) .

(1) حمدان مجاجي ابن خفاجة ، الجزائر - شون ت . 1982 .

ط 2 . ص 225 وما بعدها .

أنظر كذلك :

أ.د/ محمد مرتاض : شعر الفقهاء في المغرب العربي .

رسالة دكتوراه - جامعة تلمسان 1994 - ص 444 وما بعدها .

ولعل اشتغال الشاعر بالفقه وعلم الكلام ، وإطلاعه على علوم الأوائل ، كان له بعض الأثر على لغته ، فبعض الألفاظ مستقى من حقل الفقه ، ويدل في الوقت نفسه على نزعة عقلية عند الشاعر ، بل إن بعض ألفاظ لغته يحمل صفة التجريد التي لا تعرف إلا عند المفكرين و الفلاسفة . ونقرأ هذه الألفاظ خاصة في القسم الذي أفردده للحديث عن الكتاب الذي أهده الأمير ومنها :

المتأمل ، العدل ، الطباع ، درك الحقائق ، فكر ، عبر ، صحف ، كتب الأولين ، المعارف ، فضيلة ، حق ، حقيقة ، يموه ، حكم ، المبطل .

وهكذا يتنوع المعجم الشعري في لامية ابن خلدون ، وتختلف لغته من مقام إلى آخر . ويكاد القارئ يخرج من هذه القصيدة بانطباع لا ينكر ، وهو أن لغة الشاعر في بعض أقسام قصيدته جاءت تقريرية جافة - طغت عليها نزعة إلى مخاطبة الأمير - ولعل بعض الأبيات تبدو حشوا لا جدوى منه كقوله مخاطبا إياه :

فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا

يتسابقون إلى العلاء وأكمل .

ولا نستبعد أن يكون مرد ذلك إلى كثرة اشتغال الشاعر بالتأليف ، وطول ممارسته للكتابة النثرية التي لم يسلم بعض شعره من أثرها .

الخيال

للخيال دور أساس في مختلف أنواع الإبداع التي تصدر عن الإنسان .
و هو يقوم على أساس من خيال يصبح بدونه مجرد نثر منظوم ، أو تقريراً
لواقع ملموس ، يقول شكسبير :

" كما أن الخيال يجسم صور الأشياء غير المعروفة فإن يراع
الشاعر يحيلها إلى أشكال ، ويمنح الأشياء الشفافة حيزاً محدوداً ويجعل لها
اسماً " (1).

إنّ الخيال هو الجناح الذي يطير به الشاعر في سماء صورته التي
يصنع منها عالمه . وقد استحسن القدماء شعر امرئ القيس للصور المبتكرة
التي وردت فيه . كتشبيهه للحصان - بجمود صخر - وبقيد الأوابد، وللنساء
بالضباء (2) . وذكروا أن تشبيهه بشار للمع السيوف وسط غبار الحرب بأيل

(1) الشعر العربي المعاصر، ص 222.

(2) ابن رشيق = العمدة . ص 202-203 .

تهاوى كواكبه كان أجمل تشبيهه في الشعر القديم بالرغم من كونه
أعمى . وما ذلك إلا لقوة مخيلته الشعرية . (1)

وقد اتفق كثير من النقاد العرب في العصور السابقة على أن أجمل
الشعر ما بني على خيال . فأعذب الشعر أكذبه ، وليس الكذب هنا بمعناه
الأخلاقي ، وإنما تصوير لقدرة الشاعر على تجاوز الواقع إلى الخيال الذي
يستمد منه صورته التي يؤلف منها عالمه الشعري . وقد قال أرسطو : إن
الشاعر هو الذي يقدر على جعل المستحيل ممكناً . (2)

ويعد الممدوح في الشعر العربي القديم نموذجاً يتحرك فيه خيال
الشعراء ، ويتجسد قول أرسطو في هذا البيت الذي مدح به المتنبّي سيف
الدولة ، وابتعد به عن الواقع إلى خيال هو في حد ذاته " مستحيل " لا
يدرك:

(1) كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه .

العمدة ، ص 495 .

(2) غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . بيروت . دار العودة ودار المعرفة . ص 59 .

تهاوى كواكبه كان أجمل تشبيهه في الشعر القديم بالرغم من كونه
أعمى . وما ذلك إلا لقوة مخيلته الشعرية . (1)

وقد اتفق كثير من النقاد العرب في العصور السابقة على أن أجمل
الشعر ما بني على خيال . فأعذب الشعر أكذبه ، وليس الكذب هنا بمعناه
الأخلاقي ، وإنما تصوير لقدرة الشاعر على تجاوز الواقع إلى الخيال الذي
يستمد منه صورته التي يؤلف منها عالمه الشعري . وقد قال أرسطو : إن
الشاعر هو الذي يقدر على جعل المستحيل ممكناً . (2)

ويعد الممدوح في الشعر العربي القديم نموذجاً يتحرك فيه خيال
الشعراء ، ويتجسد قول أرسطو في هذا البيت الذي مدح به المتنبي سيف
الدولة ، وابتعد به عن الواقع إلى خيال هو في حد ذاته " مستحيل " لا
يدرك:

(1) كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه .

العمدة ، ص 495 .

(2) غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . بيروت . دار العودة ودار المعرفة . ص 59 .

وَصُولُ إِلَى الْمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ

فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا .⁽¹⁾

فهذه الصورة تبدو بعيدة عن الواقع ، بل مستحيلة التحقيق ، ولكنها في صورتها الشعرية لا تخلو من جمال . وقد قال ابن رشيقي في هذا المعنى :
 " وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل ، والباطل بصورة الحق ،
 لدقة معناه ، ولطف موقعه " ⁽²⁾ وهو ما قاله أرسطو بعينه من أن الشاعر
 يستطيع أن يجعل المستحيل ممكنا .

وإذا حللنا الخيال عند ابن خلدون ألفيناه متمثلا في هذه الصور التي يرسمها الشاعر معتمدا على أسلوب بلاغي أساسه التشبيه وما يشتق منه من استعارة ومجاز ، وقد استطاع أن يوشح قصيدته بكثير من هذه الصور الخيالية التي أسبغها على ممدوحه ليجعل منه بشرا غير البشر ، وخليفة فوق الخلفاء :

(1) الديوان ص 180 .

(2) العمدة . 85 .

سام على هام الزمان كأنه

للفخر تاج بالبدور مكلل .

فهذا خيال مركب من صورتين : فالخليفة معتل رأس الزمان أو هامته . وهو على هذه الهيئة من الرفعة والعلو ، كأنه تاج للفخر . ولكنه تاج مكلل بالبدور . وليس تاجا كتيجان الملوك . فقد استعار الشاعر للزمان هاما يعتليها الخليفة ، وليس بعد هام الزمان من قمة تعلى ، ثم شبهه بتاج تكله البدور ، ولكنه تاج الفخر وليس تاجا للبشر ، فيكون الشاعر قد استعار للفخر تاجا ، وفي ذلك تشبيه له بملك فوق مستوى البشر، تحفّ به الأقمار المنيرة . وتذكرنا هذه الصورة بتشبيهه النابغة للنعمان بالشمس ، وللملوك بالكواكب . وهي صورة وإن وصفت واقعا حقيقيا ، تبدو أبسط من صورة ابن خلدون وأقلّ منها تجديدا . ومن الاستعارات الجميلة التي تدل على سعة خيال الشاعر تشبيهه للزمان بشخص يؤتى إليه . وهي صورة تبدو مستمدة من قول المتنبي :

أتى الزمان بنوه في فتوته

فسرّهم ، ثم جنّاه على هـرم . (1)

(1) ديوان المتنبي ، ص 386 .

وأغلب التشبيهات في هذه القصيدة هي التي جاءت لتصف الأمير وترفعه درجات لا يدركها البشر . ومن مبالغة الشاعر في مدحه له إيراد أربعة أبيات متتالية تكررت فيها أداة التشبيه كأن ، وفي آخر هذه الأبيات يدعو الشاعر الناظرَ إلى الخليفة إلى تصديق كل ما وصف به الأمير من خيال ، وكان ذلك ليس سوى ضرب من حقيقة الخليفة التي لا تنكر :

وكانما رفع الحجاب لناظر

فرأى الحقيقة في الذي يتخيل

موضوع القصيدة وأقسامها

موضوع هذه القصيدة الرئيس هو مدح الخليفة الحفصي . والمدح غرض شعري نبيل إذا كان محمولا على صدق ، نابغا من إعجاب بشخصية الممدوح . وإذا كانت المبالغة في المدح ضرورية حتى يكون الشعر جميلا ، فإن لها كذلك حدودا لا ينبغي أن تتجاوزها .

والمدح منتشر في أغلب الشعر العربي قديمه وحديثه . ولا يكاد يخلو

ديوان شاعر قديم من مدح .

ولعل النابغة الذبياني ، في نظر مؤرخي الأدب العربي . أول من تكسب بالشعر مادحا ، وقبض المال عليه : قال ابن رشيق : " حتى نشأ النابغة الذبياني ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر . " وتبعه الأعشى الذي جعله " متجرا يتاجر به نحو البلدان " . وانحطت قيمة المدح عند الحطينة إذ أكثر من السؤال به " حتى مقت وذل أهله " (1) .

وأصبح المدح عادة عند كثير من الشعراء ، ووسيلة تكسب ويلتمس ابن رشيق للشعراء الأعداء عندما يذكر أن فقهاء أتقياء ورجال علم كانوا يقبلون صلات الملوك . منهم الحسن البصري ومالك بن أنس . وغيرهم كثيرون . " والشعراء في قبولها مال الملوك أعذر من المتورعين وأصحاب الفتيا " (2) .

و لا يمكننا أن نعد مدح ابن خلدون للملوك الذين اتصل بهم مدح تكسب ، وهو العالم الفقيه ، وإنما هو مدح مجاملة وإعجاب . وقد كان أحيانا يمدح هذا السلطان أو ذلك ليلتمس منه الرحيل إلى بلد آخر ، أو ليستأذنه في العودة إلى وطنه . ويمكننا أن نقسم هذه القصيدة إلى أقسام أربعة:

(1) العمدة ، ص 110 .

(2) المصدر نفسه ، ص 183 .

القسم الأول يبدأ من البيت الأول إلى البيت التاسع عشر . ويشتمل على مدح ملوك بني حفص ، بشرف النسب والكرم والعز والشجاعة والتدين الصحيح .

وفي القسم الثاني مدح لشخص الأمير أبي العباس بالشجاعة وحسن الخلق ، والعدل والصلاح ، وحسن السياسة والسيرة وما يتصل بذلك من صفات الأمراء .

أما القسم الثالث ، ففيه التفاتة الشاعر إلى نفسه . ويشعر القارئ بهذا التواضع الجرم الذي يبديه الشاعر للأمير حين يتحدث عن نفسه في بعض المواضع من هذه القصيدة . كما يشعر بهذا الأدب الذي يلازمه خلال مدحه . وكان الشاعر قد التزم ببعض شروط المدح التي وصفها النقاد القدماء . فقد قال ابن رشيق ، وقد كان هو نفسه شاعرا مادحا لأحد سلاطين المغرب ، في باب أدب الشاعر . من كتابه العمدة :

" ولتكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا ما كان ، ليدخل إليه من باب .. وذلك سر صناعة الشعر ، ومغزاه الذي به تفاوتت الناس وبه تفاضلوا .. وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب " . (1)

(1) المصدر نفسه ، ص 364 . 365 .

وليس ثمة من شك في أن هذه القصيدة قد وقعت موقعها من نفس الأمير ، وإن كان الشاعر لم يصرح بشيء من ذلك ولم يشر إليه ، تأدبا منه أو إخفاء لما يمكن أن يقال عن انشغاله بالشعر طلبا لرزق أو سعيا وراء غاية معينة يتحدث عنها وكأنه يشكو إلى الأمير قصر باعه في الشعر ، ومحول قريحته التي شغلت عنه بغيره ، ولعل في هذا تبريرا لما رآه في هذه القصيدة من هفوات ونقائص .

وفي القسم الرابع من اللامية يتحدث الشاعر عن كتابه الذي ألفه ليهديه الأمير ، ويلخص غرضه فيه تلخيصا شعريا . ثم يختم هذا القسم بآخر المدح ، مدح الخليفة العالم الذي تنتهي عنده المعارف ، و يحيط بأسرار العلم.

الإيقاع :

اختار الشاعر لقصيدته بحر الكامل وهو من البحور الطويلة التي تتسع لغرض المدح ومعانيه وما يصحبه من مبالغة و خيال .
واختار اللام رويا لها ، واللام حرف جميل صاحب كثيرا من الشعر العربي قديمه وحديثه ، وله قدرة كبيرة على التكيف مع المواقف المختلفة ، فهو يصلح للتعبير عن الحزن كما جاء في قول امرئ القيس :

و ليل كموج البحر أرخى سدوله

عليّ بأنواع الهموم ليبتلي¹

ويصلح للتعبير عن اللذة والسرور كما يصلح للتعبير عن جميع الحالات التي يمر بها وجدان الشاعر .

وقد تختلف الأعراض في القصيدة الواحدة وتتعدد فيتسع لها روي اللام ، ولا يضيق بأي من معانيها وإن تباينت مشاعر الشاعر فيها وتقلب عواطفه ، فخرج من الغزل والرحلة وذكر مشاق الطريق ، ومن وصف الأطلال إلى مدح الخليفة أو الأمير .

ويبدو لنا من خلال تفحصنا لشعر ابن خلدون ، على قلته بين أيدينا - أنه كان يؤثر روي اللام على غيره ، وضمن هذا الشعر قصائد طويلة نظمت عليه ، ولا شك في وجود غيرها مما لم يصلنا شيء منه .

رأينا في القصيدة

لهذه القصيدة قيمة تاريخية ، ما في ذلك شك ، كما أن لها قيمة فنية لا تتكرر. وإن لم تبلغ مرتبة الجيد ، غير أن ما يشفع لها هو أنها لا تمثل شعر ابن خلدون كله ، ولا تعكس كل قيمته الفنية ، وهي نفسها لا تخلو من جودة وإتقان في بعض مواطنها. ولعل ابن خلدون قد حقق في هذه القصيدة ما سماه ابن رشيق بـ " السلامة " : " وليجعل [الشاعر]

¹ إيليا الحاوي ، إمرو القيس ، بيروت ، دار الثقافة ، ط1970، 1، ص 149 .

طلبه أولا السلامة ، فإذا صحت له ، طلب التجويد حينئذ " (1) فغاية الشاعر الأولى هي صحة شعره وخلوه من اللحن والخطأ ، أما الجودة فمرحلة أخرى يطمح إليها الشاعر فيما بعد . وقد تحققت هذه الجودة في شعر ابن خلدون في غير هذه القصيدة كما سنرى ذلك بعد حين .

وإذا اعتبرنا هذه القصيدة " حالا بين حالين(2)" على حد تعبير ابن

رشيق ، فإنه يمكننا أن نلتصق لذلك أسبابا :

فهي ، من ناحية ، قصيدة مجاملة ، والمدح المجامل كثيرا ما يصدر عن شعور بالواجب إزاء الأمير ، أو الممدوح بصفة عامة . و المجاملة ليست وازعا وجدانيا قويا ، ولا دافعا مؤثرا يحمل الشاعر على الإجابة والإلتقان يمليه الواجب وتقتضيه الظروف أحيانا ، وكثيرا ما يخلو من صدق الشعور . ومن جانب آخر فإننا نشعر كأن الشاعر قد دفع إلى إلقاء قصيدته دفعا . وذلك بعد أن أشاع حساده بين حاشية الأمير أنه قد امتنع عن مدح الأمير ومدح غيره . فلم يكن ذلك - في رأينا - سببا طبيعيا حمل الشاعر على مدح الأمير من تلقاء نفسه عن اقتناع وروية ، وإن توفرت فيه الصفات التي ذكرها في قصيدته .

(1) العمدة ، ص 364..

(2) المصدر نفسه ، ص 364.

ولا بد أن نضيف إلى هذين السببين سببا ثالثا وهو أن القصيدة ،
 في بعض أقسامها ، عبرت عن حقائق تاريخية معينة ، كما ورد فيها
 ذكر الكتاب الذي ألفه الشاعر وشرح بعض أغراضه ومعارفه . ونحن نعتقد
 أن الشعر يضيق بمثل هذه الأغراض التي هي أقرب إلى مسائل العلم
 منها إلى مواضيع الشعر. فيحتاج الشاعر فيها إلى السرد والتفصيل
 وإعمال العقل، و التقيد بالوقائع التي يسردها. فيكون هذا الشعر في
 جوانبه أقرب إلى النظم ، وكان القارئ يقرأ نثرا موزونا . ولعل
 لاشتغال الشاعر بالكتابة و التأريخ بعض الأثر على هذه " النثرية " التي
 نلمسها في هذا القسم أو ذلك من أقسام هذه القصيدة :

فملاك كل فضيلة وحقيقة

بيديك تعرف وصفها إن بدلوا

وكان مطبقة البلاد بعدله

عادت فسيحا ليس فيها مجهل

فليس في هذين البيتين شيء من جمال الشعر . ولولا الوزن الذي

أقيما عليه ، لكان كلاما عاديا ، يكاد يكون هزيل المعنى ، خاليا من كل

الخصائص الفنية المطلوبة.

إن كل ما قلناه هنا هو خاص بهذه القصيدة دون غيرها. فالشاعر قصائد أخرى أجود منها وأبلغ تأثيراً. وهو حكم قدمنا له أسبابه وعللناه بما ذكرنا من ظروف القصيدة ونوعية بعض أغراضها. إن الجودة درجة لا يبلغها كل شاعر. وإن بلغها في بيت لا يبلغها في أبيات، وإن أدركها في قصيدة لا يدركها في قصائد. وهي حالة لا تعرف الاستمرار والدوام.

" فالبيت الجيد مقام ألف رديء " كما قال ابن رشيق (1) والنقد نفسه لا يستطيع أن يحدد مقياساً دقيقاً لها.

ولابن خلدون قصائد مدح أخرى لعلها تفوق اللامية جودة وجمالاً. ولئن استوقفنا هنا هذه " البائية " التي مدح بها السلطان أبا سالم سلطان فاس، فهي ليست سوى واحدة من مدائحه المتعددة. إنها لا تقل جودة عن مدائح شعراء المشرق الكبار للملوك الذين مدحوهم.

وما تمتاز به هذه القصيدة أنها جمعت بين أغراض ثلاثة قلما اجتمعت لأحد شعراء المشرق في مدائحه. أولها الوقوف على الأطلال وما يرافقه من بكاء على الأحبة الذين رحلوا ولم يتركوا بعدهم سوى آثار دارسة، ومن تذكر لأيام خلت وساعة الوداع وما يؤلف ذلك الموقف الحزين الذي يقفه الشاعر وكأنه يريد أن يتعلق بأذيال الزمن الذي لا يتوقف. وثانيها

(1) المصدر نفسه، ص 365.

المدح النبوي ، وهو المناسبة التي دفعت الشاعر إلى تخليدها ، ومن ثم الانتقال إلى مدح السلطان . وهو الغرض الثالث من أغراض هذه القصيدة يقول :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي

وأطلن موقف عبرتي ونحيبي

وأبين يوم البين وقفة ساعة

لوداع مشغوف الفؤاد كئيب .

لله عهد الظاعنين وغادروا

قلبي رهين صباة ووجيب

يستعذب الصب الملام وإنني

ماء الملام لدي غير شروب (1)

عبثت بها أيدي البلى وترددت

في عطفها للدهر أي خطوب

تبلى معاهدها وإن عهودها

ليجدُّها وصفي وحسن نسيبي

وقد أطل الشاعر في هذه الوقفة الطللية مستوفيا كل المعاني التي

تعرض لها في مثل هذه الوقفات .

(1) أورد لسان الدين ابن الخطيب هذه القصيدة كاملة في " الإحاطة " ،
المجلد الثالث ، ص 508-509-510 .

وغير خاف أنها وقفة تقليدية جرى فيها الشاعر مجرى الشعراء
القدامى، واستجاب فيها لداعي الفن أكثر مما استجاب لداعي الشوق
والحنين . و على الرغم من بساطة معانيها ووضوحها فإنها تنزل من نفس
القارئ والمتلقي منزلة الإعجاب فيشعر وكأن به شيئا مما في نفس الشاعر .
ولعل النقاد العرب في العصور القديمة لم يبتعدوا عن الصواب
عندما ذهبوا إلى أن . الوقوف على الأطلال وذكر الأحبة الراحلين هو من
محاسن الشعر يستعذبه السامع ويرتاح إليه .

والشاعر كما يقول ابن قتيبة " ليستدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن
التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ... فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون
متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم . " (1)

عبثت بها أيدي البلى وترددت

في عطفها للدهر أي خطوب

تبلى معاهدها وإن عهدها

ليجدُّها وصفي وحسن نسبي

(1) ابن قتيبة : الشعر والشعراء . دار إحياء العلوم - بيروت
1987 . ط - 3 . ص 31 .

عبثت بها أيدي البلى وترددت

في عطفها للدهر أي خطوب

تبلى معاهدها وإن عهودها

ليجدُّها وصفي وحسن نسيبي

وإذا الديار تعرضت لمتيم

هزته ذكراها إلى التشبيب (1)

ويخلص الشاعر بعد هذه الوقفة الطويلة عند الديار إلى المدح النبوي .
وقد أحسن التخلص وربط بين غرضه الأول: الوقوف على الأطلال ،
وغرضه الثاني : المدح النبوي ربطا جميلا إذ لم يترك بينهما فراغا ولا
أدخل معنى آخر أو واسطة يستعين بها ، وهذا ما يسمى عند
النقاد " حسن التخلص " . وهو إن وفق فيه الشاعر ، إنما يدل على
براعته ومقدرته على الانتقال السهل بين أغراض القصيدة .

ثم يصل الشاعر إلى ممدوحه ليهنئه بكونه مستحقا للملك الذي يجلس

(1) التعريف ، ص 73-74-75-76 .

على عرشه ، أهلا لسياسته التي ينتهجها مع رعيته . فكان له من ذلك
فخرٌ يُذكر به وشرف يستند عليه .

لا زلت مسرورا بأشرف دولة

يبدر الهدى من أققها المرقوب

تحيي المعالي غاديا أو رائحا

وحديد سعدك ضامنُ المطلوب

ويستمر الشاعر مادحا سلطان فاس على هذا المنوال ، ذاكرا صفاته
الحميدة وتمسكه بدينه وشرف أسلافه . ومن ثم يصبح المدح بالتمسك بالدين
والسير على شرف الأجداد من أبرز الخصائص التي تميز مدائح ابن خلدون
لأمراء دويلات المغرب الثلاث .

ولئن حكمنا على هذه القصيدة بالجودة والجمال وحسن السبك
وملاءمة قافيتها للغرض الرئيس فيها ، فإننا لن نختلف مع الشاعر نفسه
في هذا الحكم . حين قدم لها بهذه الكلمات :

" ثم أخذتُ نفسي بالشعر ، فانثالت عليّ منه بحور توسطت بين

الإجادة والقصور " (1)

(1) التعريف : مصدر سابق ، ص 73 .

ونحن نعتقد أن الجودة قد غلبت على القصور في هذه القصيدة ، ولم يكن حكمه على بعض شعره بالقصور سوى تواضع منه ، وتلك شيمة من شيم العلماء .

و ما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن مدح ابن خلدون ، أن الشاعر لا ينسى الحديث عن نفسه قبل أن يصل ممدوحه . فهو غالبا ما يلتفت إليها متحدثا عن آلامها وأحزانها ومعاناتها . إنها معاناة الشاعر وليست معاناة المادح . وهو في هذه النزعة أقرب إلى المتنبي الذي كان يتحدث عن آمال نفسه وأحزانها قبل أن يخصص شيئا من شعره لممدوحه ، وإن كان المتنبي أكثر عمقا وفلسفة في شعره من ابن خلدون .

يقول من قصيدة دالية خاطب بها الممدوح ذاته وقد وصلته هدية من ملك السودان :

الله مني إدد تآوبني

ذكراه وهو بشاهد فرد

شهم يفلُّ بواترا قضبأ

وجموع أقيال أولي أيد

أوريت زند العزم في طلبي

وقضيت حق المجد من قصدي

إلى أن يقول له :

يا مستعينا جل في شرف

عن رتبة المنصور والمهدي

وبقيت للدنيا وساكنها

في عزة أبدا وفي سعد (1)

وهكذا تتنوع البحور عند الشاعر ، وتتغير القوافي التي يؤسس عليها قصائده ، سواء كانت مدحا أو غيره ، وهذا ما يمنحه مرتبة سامية بين شعراء المغرب ، ويجعله جديرا بالدراسة والاهتمام .

(1) المصدر السابق . ص 76 . 79 .

الفصل الثاني :

الاعتذار في شعر ابن خلدون

* مدخل

يُعدُّ الاعتذار من الأغراض التي أقل الشعراء العرب النظم فيها نظراً لما يتطلبه من ظروف خاصة به ، فلا يقول الشاعر معتذراً إلا لأسباب معينة فهو يعتذر لعزيب في القلب أو لعزيب في الجاه .

والاعتذار يأتي بعد الندم والرجوع عن ما كان قد صدر عن المرء من قول أو فعلٍ ، وإذا اعتذر الشاعر فليس لحاجة إلا لطلب العفو والصفح عنه .

وعادة ما كان الشعراء يعتذرون ويستعطفون أصحاب الشأن لينجوا من الوعيد أو ليرجعوا إلى النعمة التي حرموا منها . وإن اختلفت وتباينت أسباب ذلك من شاعر لآخر ، فيرجع الشاعر منهم عن ذلك وينظم معتذراً أو مستعطفاً . وهو يخاطب من خلالها قلب الحاكم ويحرك فيه بؤرة الحلم والتسامح ، فيصفح عنه .

ولعلَّ شعر الاعتذار يقع في باب الأغراض الخاصة كالرثاء والنسيب فلا يشارك الشاعر عواطفه شخص غيره ولا يعني شعره ذلك سوى المقصود بالاعتذار ، فرسالة الشاعر مقتصرة في أغلب الأحيان على شخصين لا أكثر .

والمتصفح لتاريخ أدبنا العربي يجد أن الاعتذاريات قليلة جداً في ثنايا الأغراض الأخرى ، ولعلَّ أهمَّ الشعراء الذين اعتذروا هو النابغة الذبياني الذي اشتهر باعتذارياته لنعمان الحيرة أبي قابوس الذي اتهمه بذكر زوجته في شعره ففرَّ خائفاً إلى الغساسنة فمدحهم وكانوا أعداء المناذرة ، فتوعده النعمان ولما وصله وعيده تراجع وراح ينظم أشعاراً يعتذر بها للملك ويبعث بها إليه مع العبيد والتجار والرسل كقوله :

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي

وَلَا قَرَارَ عَلَيَّ زَارَ مِنَ الْأَسَدِ

مَهْلًا فِدَاءً لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ

وَمَا أُنْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ

مَا إِنْ بَدَأْتُ يَشِيءُ أَنْتَ تَكْرَهُهُ

إِنَّ فَلَاحَ رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي (1)

وما هذا البيت إلا قطرة من البحور التي اعتذر بها النابغة في شعره وإن كنا قد اكتفينا بذكر بعض الأبيات فلأنَّ المقام لا يتسع لأكثر من التفاتة عاجلة إلى هذا الشاعر الكبير الذي خلَّد نفسه في شعرنا العربي القديم .

والاعتذار في صدر الإسلام نجده في بردة كعب بن زهير الذي عُرف بعدائه الشديد للإسلام ولنبيه (ص) ، فتعرض له وهو يقدم التوم لأخيه

1 " الشعر والشعراء " لابن قتيبة ص 94 .

بُجِر لإسلامه ، وكان أن بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام ما قال عن الدعوة الإسلامية من هجاء لاذع فتوعدده الرسول (ص) وأهدر دمه .

فجاء إلى رسول الله (ص) معتذرا مستعظفا بقصيدة جميلة مطلعها :

بانت سعاد قلبي اليوم متبول

متيم عندها ، لم يُفدَ ، مكبول⁽¹⁾

وبعد المقدمة الغزلية التقليدية يدخل في غرض الاعتذار فيقول :

نبئت أن رسول الله أو عدني

والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا ، هداك الذي أعطاك ناقلة ال

قرآن فيها مواعيط وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم

أذنب ، ولو كثرت في الأقاويل⁽¹⁾

فتجاوز النبي الكريم عن ذنبه ووهب له بُردته ، فصارت تُسمى

القصيدة بالبردة .

(1) ذكر صاحب العمدة في هامش ص 79

أنه ورد في الديوان: "إثرها" بدلا من عندها .

وتحدثنا مصادر الأدب أن حسّان بن ثابت اعتذر لعائشة رضي الله
عنها بعدما صدر عنه في حادثة الإفك :

حصانُ رزانٍ ما تزنُ برييةً

وتصبحُ غرثي من لحوم القوافل

فإن كنت قد قلت الذي زعمتم

فلا رفعت سوطي إليّ أناملني

وما كان لشاعرٍ مثل حسان أن يعتذر لو لم يقل شيئاً ، فمن ذا
الذي يعتذر عن قول غيره ، فقد قال عنه ابن رشيق : " اعتذر حسان مغالطاً
في شيء نقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحدِّ ، زعم أن ذلك قول
امرئ ما حل به " (1) و الخطيئة الذي بعث إلى عمر بن الخطاب بعد أن
حبسه بقوله :

ماذا أردت لأفراخ بذي مرخ

حُمُر الحواصل ، لا ماءً ولا شجرُ

ألقيت كاسبهم في قعرٍ مظلمةٍ

فاغفر ، عليك سلام الله يا عمرُ (2)

اعتذر الخطيئة بهذه القصيدة لعمر رضي الله عنه عن هجاء موجه
قال فيه فعطف على صغاره وأهله وأخرجه من السجن .
كما اعتذر الشاعر الأموي جرير لزوجته أم حزرة عن التكسب
بالشعر لما في ذلك من شعور بالمذلة وهو يهْمُ بمدح الخليفة الأموي عبد
الملك بن مروان :

(1) المصدر نفسه . ص 84 .

(2) "العمدة" ابن رشيق ص 82 .

تعزت أم حزرّة ثم قالت

رأيتُ الواردين ذوي لِقَاح

تعلُّ وهي ساغِبَة بنِها

بأنفاس من الشبم القـراح

سامتأخُ البحورَ فجئبيني

أداة اللوم وانتظري امتياحي .

واعذار جرير لا يُشبه الاعتذار الذي تحدثنا عنه ، فهو لا يعتذر عن قولٍ أو فعلٍ صدر عنه ، وندم ، فتراجع عن ذلك ، بل لأنه لا يرغب في التكبس وإذلال نفسه ، ويفضل ركوبَ المخاطر لكسب قوت أولاده على أن يستجدي بشعره .

وقد تتعدد دوافع شعر الاعتذار وظروفه غير أن الخيط الذي يربط بين هذه القصيدة أو تلك ، هو الإحساس بالندم والرغبة في العدول عما يسبب للشاعر موقفا متأزما ، وحالا من الحزن واليأس . ولا يكون للشاعر حينئذ إلا الشعر وسيلة ، والاعتذار منهجا ، والصفح غاية يصبو إليها .

فما أكثر ما أنجى الشعراء أنفسهم من عقاب الحكام وانتقام الملوك ، وما أصدق ما قاله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه " وَ نِعَمَ ما تعلمته العَرَبُ

الأبيات من الشعر يُقَدِّمُهَا الرجلُ أمامَ حاجته ، فيستنزلُ بها الكريمَ ،
ويستعطف بها اللئيمَ " (1)

ومن ثم تكون للشعر سلطة أقوى من سلطة السيف . وقد يحكم
الشاعر بقوة ما يتميز به من فصاحة القول ونفاذه إلى الناس أكثر مما يأمر به
حاكم قد لا تُطِيعه إلا زُمرة خوفا منه أو ولاءً له .

ويمكن القول إن قوة الشاعر تكمن في كونه لا يجبر أحداً على اتباعه
والإعجاب بشعره ، وإنما يُساق إليه طواعية وإعجاباً واقتناعاً بما يقول .

(1) " العمدة " ابن رشيق ص 69 .

تحليل نص الاعتذار:

من الواضح أن يكون ابن خلدون قد تألم كثيرا بسبب حسد الحساد ،
فكابد الأمرين بما كان يوشى به للحاكم والأمراء . وما استقر الرجل في
أرض ولا مكث بإمارة إلا وتغيرت حاله إلى أحوال وما إن يهنأ بمنزلة إلا
ونغص بعضهم عيشه وقلب عليه محبة وودّ السلطان إلى إبعاد وإهمال.

ولعمري إن ابن خلدون ما كان بالرجل الذي يرضى ذلك كله ،
فالرجل كان يعرف نفسه حق المعرفة ، ولم يكن يقبل بالمهانة والمذلة من
أحد ، أما وقد أخطأ و أحسّ بالذنب فهو الإنسان العاقل الذي يقلب الأمور
على مختلف أوجهها ويدرك مكامن الحقيقة فيقصدتها ويخاطب نفسه لتجربتها
من الهوى حتى يأخذه الندم والإحساس بالذنب والخطيئة ، فيسعى على
إصلاح ما أفسده.

وإنّ رجلا مثل ابن خلدون نال حظوة عند السلطان وتقلد العديد من
المناصب النبيلة وألف عيشة العزّ و الشرف ، بالإضافة إلى أنه كان شغوفاً
بحب العلم والتعليم ، يعزل عن وظيفته ويفقد مكانته في " الخانقاه " * الذي
كان بمثابة الجامعة التي تلقن علوم الدين والتصوف فلا بد وأن يعتذر

* الخانقاه : كما ذكر ابن خلدون " والخوانق لإقامة رسوم الفقراء والتخلق
بآداب الصوفية "

ويبرر ما صدر عنه . وهو ما كان دافعا له إلى نظم قصيدة مطولة في الاعتذار والاستعطاف كتبها إلى "الظاهر البرقوق" وحمل إياها الأمير الجوباني الذي كان يكن له في نفسه محبة وتقديرا .

فمناسبة القصيدة هي العزل وسبب العزل هو الفتوى التي كانت في جواز قتال الملك الظاهر البرقوق الذي كان يستعين بالنصارى على قتل المسلمين ، ولم يكن الأمر كذلك وإنما أرادوا تلبيس العلماء المفتين الذين كان ابن خلدون وأحدا منهم . فأجازت الفتوى قتاله وهذا ما أراده الأمير منطاش وغيره ، فأبعد ابن خلدون عن وظيفته لغضب الملك الظاهر عليه . فاعتذر ابن خلدون بقصيدة من سبعة وستين بيتا حمل مضمونها كثيرا من الاستعطاف وتوضيحا للشبهة التي أحاطت به .

وابن خلدون بنزعتة التاريخية لا يهمل ذكر ظروف نظمه للقصيدة حسب ما ذكر في " التعريف " ... وكتبتُ إلى الجوباني بأبيات اعتذار عن ذلك " (1)

(1) التعريف . ص 365.

فالقصيدة إذن في موضوع الاعتذار والاستعطاف كما ذكر هو، غير أنها توزعت أبياتها في أجزاء مختلفة تخدم كلها الغرض الرئيس .

يبدأ بمخاطبة الجوباني مستعطفا إياه مستجيرا لديه من سخط السلطان وغضبه ، ثم ينتقل الشاعر إلى مدح السلطان ووصفه بما يعظم في نفسه من خصال حميدة ، كاعتباره فخر الإسلام وناصره وقاهر العدو ومذله . ثم يخلص إلى استعطاف يرق له الصخر و منه ينتقل إلى توضيح الظروف التي جعلته ومن كان معه من الفقهاء يكتبون على الفتوى ، أي يوقعون بالموافقة عليها مغلوبين على أمرهم ، فيجتهد في الدفاع عن نفسه محاولا تبرئتها من الخطأ ، ويسترسل مستعطفا ومتسائلا عن مصيره ومتعجبا لعزله ، فهو في اعتقاده لم يذنب ليستحق مثل ذلك العقاب .

ويختتم هذه القصيدة بأبيات ينصح فيها الجوباني بالولاء للملك وطاعته . والعمل على نصرته على الأعداء ، وهي أبيات لا تخفي مدحه للسلطان والتقرب إليه .

ولعل أهم ما يستوقفنا في هذه القصيدة هو مطلعها الذي ينادي الشاعر فيه الأمير الجوباني :

سيدي والظنون فيك جميلة

وأيديك بالأمانى كفيلة

وهو يمدح الأمير ويجلّ قدرة بلفظة " سيدي " وهي كلمة لا يقولها المرء إلا إذا أراد أن ينادي شخصا يحترمه ويقدره ، ثم يمهد لموضوع القصيدة حين يقول إن " الظنون فيك جميلة " وهو يعني أن كل ظنونه تؤكد أن الأمير يتميز عن غيره بالصفات الحميدة والأخلاق العالية . فالشاعر أحسن اختيار الكلمات والوحدات اللغوية حين يبتدئ كلامه على هذا النحو ، يرفع من شأنه ثم يمرر رسالته ، ويبلغ قصده دون مشقة أو عناء . وهذه مقدمة ، وفق فيها الشاعر إلى حد كبير ، فأى نفس لا تحب الإثراء والمدح . فالشاعر يعرف من أين تؤخذ زمام الأمور ويدرك في أي اتجاه تهب الرياح فهو يقول أيها الأمير الكريم إن ظني فيك حسن وجميل ، وأنني في مثل هذا الحال أوكلُ لك أمري متمنيا أن تعيدني إلى ما كنت فيه من عزّ ، ثم يصرح له بأنه عديم الحيلة ضعيف الجاه . والشاعر يستعطف الأمير ويعتبره خيط الأمل الذي يتعلق به ويعول عليه ، فهو السند والرجاء ، وهو المجير الشافع ، إنه يترجاه ألا يتركه لسخرية الخصوم . فمن غيره ينصره ويجيره ، وهو لن ينسى له صنيعه ذاك لأنه وفيّ يعرف صون الحب وحفظ الجميل . وليس من النوع الذي ينسى أو ينتاسي المعروف .

وبعد أن يفرغ من مخاطبة الجوباني واستعطافه ، ينتقل إلى مدح الملك انتقالا لا نكاد نشعر به لحسن اختيار الشاعر وسيلة الأمر ، فهو يوظف صيغة الأمر " أنه أمري " بعبارة أخرى وأنقل أمري هذا ، أو أخبر عن حالي هذه الملك الذي جعل الله أمور الدنيا تحت تصرفه ، وهي مبالغة ، فهو

يصفه بأنه صاحب الأمر والنهي ، وهي إشارة إلى قوة ذلك السلطان في عصره . ويلمح إلى حكمة الظاهر ورجاحة عقله في التمحيص والبحث . وتقصي الحقيقة . فهو حريص على التوصل إلى حقائق الأمور مهما كانت ، وهو بذلك عادل لا يتسرع في إصدار الأحكام ولا يظلم . كيف لا والله قد منّ عليه بفضله ، وكان له معينا على نصرته الإسلام وعزة المسلمين ، وهو لا يدخر جهدا في قهر العدو . ويشير إلى وصف شجاعة الظاهر وبطشه وقهر النصارى ونصرته للمسلمين ، وهو في كل هذا شاكر لله على نعمه في كل أن . وهذا مخالف لما جاء في الفتوى التي كتبها الشاعر وأصحابه من الفقهاء . ثم ينتقل إلى مخاطبة الرسول الذي هو الجوباني . فهو صديق الملك وخليله ويتمتع بمكانة رفيعة عنده . والشاعر يرى أنه أفضل من يبلغ عنه هذه الرسالة ، رسالة الاعتذار . وهو بقوله هذا يستعطف الأمير الجوباني حتى يرق له قلبه ، ومنه يبلغ اعتذاره للظاهر أحسن تبليغ ، فيبعث له بمدح يصفه بأنه سيد الملوك و أعدلهم ، ويناشده أن لا يرد طلبه فمزال أمله كبيرا في كسر الأيادي الطويلة ، وهي كناية عن الحكام الجائرين الذين كانوا سبب محنته تلك ، ومن يقدر عليهم غير سلطان مثل الظاهر الذي كان الشاعر يراه ناصر الحق ومنصف المظلوم .

ثم ينتقل إلى الاستعطاف ، فيذكر أنه مستجير بالملك ودولته ، وهو يعاني الأمرين ، يحطم قلبه اليأس ويعصر فؤاده الأسى . فالدنيا تدير له ظهرها بعد ما فقد مكانته وصار معزولا عن منصبه ، وهو الذي طالما

احتفى بالمنزلة الرفيعة أينما حل وارتحل ، ها هو اليوم يفقد ما كان يعزّيه ويقلل من وحشة وحدته ، وحدة حزنه على أهله الذين ماتوا كلهم غرقا وهم قادمون إليه من بلاد المغرب . ويحسن الشاعر استغلال هذه الحادثة المؤلمة ، فيذكرها وهو منكسر الوجدان ، بانس لما أصابه لا يشده إلى هذه الدنيا سوى إيمانه العميق ، وورعه وعلمه الذي يُذكره بأن لكل أجل كتابا .

حزن الشاعر إذن حزانان : حزن البعد عن الوطن مع فقدان الأهل ، وحزن لفقده المكانة الاجتماعية التي كان متمتعا بها . ثم يضيف مصرحا كيف كانت حياته قبل أن يمن الله عليه بمحبة الملك الظاهر ، الذي رفع مكانته وأنزله المنزلة التي كان يتمناها طوال عمره .

فحياة ابن خلدون حافلة بالأحداث كما نعرف ، وهو الرجل الذي صقلت همته التجارب ، وحلب الدهر أشطره ، وعلمته الأيام كيف يعامل الملوك وذوي السلطان ، وهو مدرك لما كان يحيط به من تغيرات وتطورات كانت تحدث في العالم الإسلامي والأوروبي ، ومقدمته خير شاهد على ذلك .

فعدم استقرار الحياة السياسية نتج عنه سلسلة من الاضطرابات في ميادين أخرى مما جعل كثيرا من العلماء مثل ابن خلدون يشكون قساوة الأيام وتقلبات الزمان . فهو وإن كان قد نال مكانة مرموقة لم تدم له ، ولم يهنأ بها طويلا ، فما كان الدهر يبتسم له حتى يعود فتقلب قلبه ، ويجد نفسه مضايقا بشكل من الأشكال . والشاعر في هذه القصيدة يصرح بحاجته وضعف حيلته ، وهو يعترف بنعمة هذا الملك ولا ينكرها ، كما لا ينكر أنه هو من

رفع قدره قبل أن يشكو ذلك التعب والإرهاق الذي يسيطر على المرء الذي يطول به الأمد ، ويجد نفسه فجأة على هامش الأحداث .

ثم ينتقل إلى قسم آخر من القصيدة يشرح فيه ظروف تلك الفتوى وكيف رموه بأكاذيب لا يقبلها العقل و لا يصدقها المنطق ، وكيف أرادوا أن يزوروا حقائق الأمور ، وكيف قلبوا الحق إلى باطل والباطل إلى حق .

ثم يتساءل متعجبا كيف له أن يتنكر للملك الذي أغدق عليه نعمه وخيراته ورفع من شأنه ، فيتبرأ من ذلك كله وينكر كل الإنكار أن يكون قد فعل ما فعل طواعية ، بل كان هو ورفاقه مجبرين على ذلك ، كيف لا ، وهم يُحملون على كتابة ذلك الكتاب الذي لفقوا له وزوروا تزويرا .

طوقنا أمر الكتاب فكانت

لقداح الظنون فينا مجيلة

ما رضينا بذاك فعلا ولا

جنناه طوعا ولا اقتفينا دليلة

إنما سامنا الكتابَ ظلوم

لا يُرجى دفاعه بالحيلة

سخط ناجز وحلم بطيء

وسلاح للوخز فينا صقيله

ثم يشير إلى أنه استدعى للإدلاء في هذه الفتوى ، ولم يكن في منصب
حكم لديهم ، كما أنه لم يكن يُكنّ لهم الولاء غير أنهم قصدوا إلى توريطه في
ذلك الأمر ، فأفتى وهو معولّ على سماحة الملك الظاهر وحلمه .

ودعوني ولست من منصب ال

حكم ولا ساحبا لديهم ذيوله

غير أني وشى بذكري واش

يتقصى أوتاره وذحولة

فكتبنا معولّين على حلمك

تمحو الأصارعنا الثقيلة

ثم يواصل الشاعر في توضيح الظروف التي أفتوا فيها ، فهم في
كتابهم لم يحددوا شخصا بعينه ، و إنما كان الكتاب يدور حول أمور عامة
مبهمة ظنا منهم بأن هذا قد يلحق العار بالسلطان ويقلل من قدره ، وهو اعتقاد
خاطئ وبعيد عن الصواب . فالملك منزّه عن العيب بالإيمان والفضائل وهو
أعظم الملوك قدرا في نظر الشاعر، إذ غلب على طبعه العفو والصفح مهما
كان الخطأ كبيرا .

وجناب السلطان نرّه الله

عن العاب بالهدى والفضيلة

وأجلّ الملوك قدرا صفوح

يرتجي ذنب دهره ليقبلة

فالشاعر بعد أن يحدد شيمات السلطان يتوجه إليه معذرا مستعظفا عن طريق أميره الجوباني ، فيتمنى أن يقبل اعتذاره ويرجو منه أن يتوسط له عند الملك في العفو عنه و التجاوز عن خطاه . فهو الغريب المغترب الذي اكتوى بحرقه البعد عن الأهل ، واشتكى محول العيش و جذبته كما يقول :

و أعينوا على الزمان غريبا

يشتكي جذب عيشه و محولة

ثم يذكر بكونه غريب الديار ، لا يعدو أن يكون مجرد ضيف لا أكثر ، و هو يطلب منه أن يمنح له فرصة البقاء في خدمة دولته . ويستجد برحمة السلطان لأنه قد اصبح لا يطيق الصبر على حاله ، وهو في هذه الأبيات يطلب منه العفو عنه ، و إرجاعه إلى ما كان عليه من منزلة مرموقة .

داركوه برحمة فلقد أم

ست عقود اصطباره محلولة

كيف بالخانقاه ينقل عني

لا لذنب أو جناحة منقوله

ويعود للأمير ويطلب منه أن يبلغ قصته إلى الملك أفضل تبليغ ،
و الله يتولى ثوابه وجزاءه .

وفي الأخير يختم الشاعر اعتذاره هذا بأبيات يعرض بسفر الجوباني
إلى الشام وبنصحه بالتقرب من السلطان ، فهو العزّ ، فإذا لازمه تتحقق كل
أمانيه ، بأن تزول عنه المصائب و الأذى الذي يدسه الأعداء ، فيصلح حال
الأمة حين تعم رعايته كل هذه المعمورة .

ويطلب من الأمير أن ينظر إلى هذا القول الصادق نظرة فإل ، وبعين
الرفقة و الشفاعة ، ومن ثمّ تكون هذه رسالة يرجو ابن خلدون من الأمير
الجوباني أن يبلغها إلى الملك الظاهر ، وأن يكون واسطة خير بينهما .

يمكن القول إن لغة القصيدة مفهومة غير معقدة في تراكيبها ،
واضحة في مراميها ، فلم يكلف الشاعر نفسه عناء انتقاء الألفاظ كما فعل في
بعض أشعاره ، إنما جنح إلى البساطة والمباشرة ، فلغة القصيدة تكاد تكون
على نسق متشابه ، لا نجهد الفكر في الوصول إلى معانيها ، ولو أراد ابن
خلدون لقصيدته لغة أكثر شاعرية و إيحاءً لكان الأمر هينا عليه ، ولعلّ لغته
النثرية في كثير من أجزاء المقدمة أكثر تعقيدا من لغته في هذه القصيدة.

فلا يمكن لنا أن نتصور رجلا بثقافة ابن خلدون واضطلاعه يعجز
عن نظم قصيدته زاخرةً بالصور والألفاظ الموحية ، ولكن من المحتمل أن
يكون قد تعمّد البساطة والمباشرة في جلّ أجزاء القصيدة ، وقصد إلى ذلك
قصداً.

وهو يهدف إلى التبليغ والإقناع ، فلم يكن في موقف يشجعه على
الانغماس في الخيال والحديث عن العواطف التي قد تكون جياشة بداخله ،
غير أن عزة نفسه وإحساسه بالذنب لكونه وافق على الفتوى التي كانت سبب
عزله في ما بعد ، هما اللذان جعلاه يهتم أكثر بترجيح كفة الحجة

والإقناع على كفة التأثير الوجداني ، فقد وظف الكثير من الألفاظ الدالة على الاعتذار والندم وطلب العفو .

كمطلع القصيدة :

سيدي ، و الظنون فيك جميلة

وأيايديك بالأمني كفيلة

وكهذه الكلمات : جميل رأيك ، حيلة ، شفاعة ، وسيلة..

أما عندما ينتقل إلى المدح فيحسن اختيار ألفاظ أو مفردات تخدم الموضوع : - فخر الدنيا - مجير الإسلام ... مديل العدو ..

فهو من البيت الأول إلى البيت السادس يوظف معجما يدل على الاعتذار . ومن البيت السابع إلى البيت السابع عشر يستعمل ألفاظا دالة على التعظيم والإجلال ، إلى الدرجة التي يصفه فيها بأنه " مجير الإسلام " و " مدل العدو " و " فخر الدنيا " وما إليها مما يدل على عظمة الممدوح . بل يمكن أن نذهب إلى القول إنه بالغ في انتقاء هذا النوع من المفردات في هذه الأبيات على وجه الخصوص ، وليس ذلك سوى وسيلة يمتطيها الشاعر لبلوغ غايته إلى الحد الذي يصفه فيه بأنه مجير الإسلام ، مديل العدو .. فخر الدنيا . إنها لغة أكثر إحياء ، بل يمكن القول إنه بالغ في اختيار بعض مفردات هذه الأبيات .

و ابتداء من البيت الثاني عشر إلى السادس والعشرين وظف الشاعر في هذا القسم من القصيدة ألفاظا أكثر إحياء وأكثر شاعرية من الأبيات السابقة في ذكر اغترابه عن الوطن - انستموه الوحشة - الحزن - فراقا - غاله الدهر - رمته النوى ... فكلها كلمات تذل على إحساسه بالغربة وقلة الحيلة والحزن الشديد عن الأهل والبنين الذين ماتوا كلهم غرقا وهم قادمون إليه من بلاد المغرب ، وهذا وحده كفيلا بأن يجعل الشاعر يعيش اغترابا مريرا أشدّ عليه من الغربة نفسها ، ففقدان الأهل كلهم فتح جرحا عميقا في فؤاد الشاعر، وقد عبّر عن كل ذلك بلغة تدل عن الاغتراب بأشكاله المختلفة.

فلفظة الوحشة في حد ذاتها أكثر إحياء وأعمق معنى من الغربة . ثم يتحدث عن فضل الملك عليه وكيف رفعه ، و أنس وحدته ، وإذا كان الشاعر قد استعمل بعض الألفاظ الموحية ، فإن لغته ظلت مباشرة تكاد لا تؤثر في المتلقي على الرغم من الكآبة التي تخيم على الأبيات من حزن وغربة. هذه هي مأساته الحقيقية فالرجل كان مكلوما من قبل أن يعزل . ولعل القارئ كان يتوقع أن ينغمس الشاعر في أحزانه لهول ما أصابه ، فينقل لنا إحساسه ، مشحونا بلغة الحزن والأسى . ولكنه يكتفي بوصف حاله وإظهار صبره وتجلده إزاء النوائب التي تعرض لها ، كما أشار إلى إيمانه بأن كل ما يصيب المرء في هذه الدنيا إنما هو قضاء من الله عزّ وجلّ . ومن ثمّ أمكن القول إن لغة الشاعر مباشرة غلبت عليها النثرية حتى وهو يصور لنا حزنه ومأساه . ولعله كان يعلم بأن المقام لا يسمح بالتوغل في أعماق ذات الشاعر.

فهو يهدف إلى إقناع الملك الظاهر بمدى ولاءه له ، وحرصه على كسب محبته ورضاه .

وقد يكون ابن خلدون استعمل اللغة وسيلة للتعبير عن موقف معين ، لم يتخذ الألفاظ ليفرغ فيها شحنة عاطفية فتعبر بذلك عن زفريات وجدانية ، إنما استعمل المألوف منها لتعبر عن التوسل والاعتذار واليأس والرجاء . فغلب على لغة قصيدته النثرية والتقريرية كما سبق أن ذكرنا .
كما اهتم الشاعر بتوضيح موقفه إزاء أولئك الحكام الظالمين الذين نمقوا أحاديث إفاك - على حد قوله - فوظف لغة توشي بالزيف و الزور :

و العدا نمقوا أحاديث إفاك

كلها في طرائق معلولة .

ورموا بالذي أرادوا من

البهتان ظنا بأنها مقبولة

ويستمر الشاعر في سرد هذه الأبيات التي يدافع فيها عن نفسه، فيعمد فيها إلى إظهار الباطل الذي رموه به ، بألفاظ معبرة إلى حد كبير نحو (روجوا ، زور ، البهتان ...) كلها ألفاظ تنبئ عن حسن النية وشفاء السريرة ، فالشاعر في هذا القسم من القصيدة - من البيت 27 إلى 43 - يدافع ويحسن الدفاع ، فهو محتاج إلى معجم لغوي قوي مؤثر يمرر عبره كل أفكاره وأحاسيسه ، فقد صور الخطأ الذي وقع فيه ، ثم ذكر ما أحاط به من

غموض في نص الكتاب أو الفتوى ، وكيف كان مجبرا على طاعة الحكام
أنداك بضعف حيلته :

إنما سامنا الكتاب ظلوم

لا يرجي دفاعه بالحيلة

فلفظة ظلوم تدل على كثرة الظلم وشدته ، ففي الوقت الذي كان هو
ورفاقه من العلماء قليلي الحيلة ، كان الحكام أصحاب أيادٍ طويلة ، وهي
إشارة إلى السلطة الكبيرة التي كان هؤلاء الحكام يتمتعون بها ، فالجملة
اللغوية ترمز إلى أكثر من معنى ، قد يفهم منها النفوذ السياسي ، والمكانة
التي كانت للناصري وأمرائه ، كما يمكن أن تدل كذلك على مدى ظلم الحكام
وتعسفهم في تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية ، ومن هنا أمكن القول بأن
لغة هذا القسم من القصيدة موحية وأكثر شاعرية وتصويرية من الألفاظ التي
وصف بها حاله .

فالشاعر ركز على إيحائية اللغة والتصوير حتى ينقل للأمير ثم إلى
السلطان ظروف الفتوى نقلا تصويريا فاستعان بألفاظ معبرة : " سخط ،
سلاح - الوخز - ذبوله - شناعة ... وهي كلمات يمكن اعتبارها أدلة قاطعة
تقنع في إبعاد التهمة عنه .

ولما استعطف فقد اختار معجماً لغوياً يختلف عن سابقه اتسم بالبرقة
والعذوبة ، وكأنه موجّ بحر طام يهدأ قليلاً إلى أن يسكن فمن السخط والظلام
والشناعة إلى جناب السلطان ، والهدى والفضيلة ، وهو لا يخفي رغبته
الملحة في الرجوع إلى ما كان عليه ، فيستعين بالشكوى من جذب العيش
وهي إشارة إلى الفقر الشديد . ثم يستجير بالأمير الذي كانت تربطه به مودة
خاصة ، فينزل نفسه منزل الضيف الذي ما اختار النزول عليهم إلا لكونهم
كراماً ، وهو يؤكد موقفه هذا بحكمة إن دلت على شيء فهي تدل على سعة
ثقافته وعمق فكره " لا يضيع الكريم يوم نزيله "

والشاعر بهذا تمكن من اقتناء اللغة المناسبة إذ وصفه بالكرم ،
والرحمة ، والإحسان وروض العلاء ، فهذه الألفاظ تكوّن كلها معجماً أخلاقياً
يسمو بالنفس البشرية إلى أنبل الصفات :

كيف بالخانقاه يُنقل عني

لا لذنب أو جنحة منقولة

فقد جاء الشاعر بكلمة ينقل ، وكأنه بقي هو في مكانه ونُقل الخانقاه
عنه ، أراد أن يشير إلى مدى ثبوته في مكانته العلمية التي لا تتغير بتغير
المناصب والوظائف ، فيسكن المتحرك ويتحرك الجامد ، وعوض أن ينقل
هو عن الخانقاه ، حدث العكس ونُقل الخانقاه عنه - على حد قوله - ومنه
يمكن القول أن ابن خلدون ما كان ليذل نفسه ويصغر أمام أي خطب من

خطوب الحياة ، ولو كلفه ذلك فقد له لمنصبه ووظيفته التي هي مصدر رزقه ، فهو إن كان يشكو الفقر لا يقلل من شأن نفسه ، وهو يدرك أنه وإن اقترب ذنباً ، يبقى ثابتاً في مكانه شامخاً بعلمه لا تهزه مثل هذه الأحداث . بالإضافة إلى أنه قد قصد من " نُقل " إلى أن وظيفته أخذت منه على حين غره ، فتكون إشارة واضحة إلى تعسفية القرار ، أما عندما يعرض بسفر الأمير إلى الشام ، ويُرَغَبُ له البقاء في مصر إلى جانب السلطان فقد أتى بلغة مناسبة من حيث الدلالة ، إذ تصبَّ أغلبها في هدف واحد هو إقناع الأمير بتبليغ اعتذاره إلى الملك الذي ضمَّته مدحا لطيفا له .

فابن خلدون فضل أن يختم اعتذاره بهذه الطريقة اللطيفة في المدح مستعينا بمعجم لغوي يتماشى وغرض المدح . كما ساق أدلة محسوسة على حسن نيته وخلص مودته دون أن يلجأ إلى لغة الإيحاءات والرموز . ولعلَّ الشاعر مدرك لكونه مطالباً بالإقناع العقلي المنطقي أكثر مما هو بحاجة إلى خلق أثر شعوري لدى السلطان أو الأمير . فالفتوى كانت محاظة بالغاز وأسرار ، والقصيدة ما هي إلا محاولة لإظهار الحقيقة وتوضيح ما غمض ، وإزالة اللبس الذي أعمى البصائر ، و أفسد السرائر . فكان على الشاعر أن يشكل قصيدته بمفردات مألوفة قريبة من الفهم العام ، ولو ذهب مذهب التصوير والرمز لكان ذلك من باب التكلف .

وقد يكون ابن خلدون قصد إلى المرسل البسيط من الألفاظ حتى تبدو قصيدته وكأنها رسالة نثرية ، غير أن هذه المباشرة والبساطة في اللغة لا تنقص من قيمتها الأدبية التبليغية لأن الشاعر استطاع أن يوصل معانيه إلى الملتقى بكل سهولة ، ودون غموض ، وهذا ما تحدث عنه بعض القدماء في تجانس اللفظ والمعنى إذ قال ابن رشيق " اللفظ جسم ، روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوّته ، فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ ، كان نقصاً للشعر. " (1)

فلغة الشاعر في هذه القصيدة لم تضعف بالمعنى الذي قصده ابن رشيق لأن الألفاظ الضعيفة هي التي لا تكون سليمة من الغموض و الإبهام والغرابة فتكون قاصرة على إظهار مقاصد الشاعر ، و تعد عيباً من عيوب الشعر إذا ما عجز عن التعبير عما يختلج بصدر قائله .

(1) العمدة ابن رشيق : ص 252 .

غير أن القصيدة ، وإن كانت مألوفة الألفاظ والمعاني ، استطاعت أن تعكس لنا جانبا من حياة ابن خلدون وما كان يعانيه من الحكام ، إضافة إلى أنها أظهرت لنا بعضا من شخصية الفقيه الورع الذي كان حاضرا في شعره إذ بدا الرجل الشكور لأنعم الله الراضي بقضائه .

فالشاعر لم يبد ثورته ضد حكم العزل ، ولم يظهر انفعالا كما تعود الشعراء أن يفعلوا ، بل اظهر حكمة ورزانة في تعامله مع هذه النكسة . فوزنه الأمور التي أحاطت به بميزان التفكير والعقل الذي لا تهزه العواطف ولا خلجات النفس الضعيفة ، فقد برز عبر مختلف أقسام قصيدته بهدوء لا يكون لشاعر منفعلي سريع التأثر . وهذا ما مثل لنا شخص ابن خلدون العالم المفكر الذي جمع بين العقل والشجاعة فتفوق على نفسه وآمها وتجاوز لحظة الضعف .

ولعلّ ابن خلدون تمكن من تبليغ اعتذاره دون أن يقلل من قدره كرجل علم ووقار .. ولإدراكه أن وقار العلم أجل وأسمى من وقار الجاه والمال ، صان ماء وجهه حتى وهو يستعطف فلم يذل نفسه ، ولم يحط من قيمته . كما عكس كل ما مرّ به من أحداث وكل ما تحمّله من هزات الدهر نتيجة جهل بعض الحكام أحيانا ، أو نتيجة ضعف الدولة الإسلامية سياسيا أحيانا أخرى . ويمكن إجمال القول بأن لغة القصيدة مباشرة غلب عليها الخطاب النثري الذي يلتقي في أسلوبه بالترسل لإكثاره من صيغة المخاطب عن

طريق صيغتي الأمر والنهي ، إضافة إلى المطلع الافتتاحي الذي ينادي فيه
الشاعر الأمير .

سيدي والظنون فيك جميلة

وأيديك بالأمني كفيله

لا تحلّ عن جميل رأيك إنني

مالي اليوم غير رأيك حيلة

واصطنعني كما اصطنعت بإسداء

يدٍ من شفاعة أو وسيلة

على الرغم من أن الخطاب النثري هو الغالب على القصيدة إلا أنها لم
تخلّ من الصور الفنية التي حولت الأسلوب المباشر إلى ابنية فنية ، فانتقلت
من المحسوس المدرك إلى عالم الخيالات الواسع الذي يكون علاقة جديدة بين
اللغة في عالم المؤلف وبين اللغة كوحدات دلالية منحرفة عن عالم الواقع،
لتصل بها إلى دلالات إضافية من إبداع الخيال الشعري .

ويمكن اعتبار الصور الشعرية المؤلفة من استعارات وكنائيات كنافذة
يُطلُّ منها الشاعر على عالمه الخاص به ، إذ لم يأت بتشبيه واحد وإن كانت
الاستعارة في حد ذاتها تعدُّ تشبيهاً ، فقد فضل الكنائيات وأكثر منها على
حساب صور التشبيه لأنه أرادها بعيدة عن الإيحاءات . فابن خلدون قصد إلى
التقريرية المباشرة لأنه يخاطب عقل السلطان الذي يهتم أكثر بإقناعه والتأثير

عليه أكثر مما يهدف إلى التأثير فيه ، لذا لم تكن قصيدته بحاجة إلى التضخيم بالصور الفنية ، بل اقتصر على الكنايات والاستعارات التي ما استطاع أن يتخلص منها ، فكانت عفوية غير مركبة في تشكيلها تكاد تكون مباشرة نحو قوله : " الأيادي الجميلة " وهي كناية عن المعروف والسخاء وحسن الصنيع . و قوله عضّ بنابيه وهي استعارة إذ جعل للخطب أنيابا يعضّ بها ، كما شبّه المصيبة التي حلت به بوحش ذي أنياب قاتلة . ثم يضيف صورة أخرى في نفس البيت و " أجرى إلى حماي خيوله " وهي استعارة تفيد أن المصيبة حلت به فجأة وبسرعة ودون انتظار ، وكأنها جيش هجم بخيوله على أراضيه ومنازله ، فهو كمن يُهاجم على حين غرة . فصور لنا ذلك الإحساس بالذعر والخوف الشديد من الواقع الذي صار يعيشه ، وهي إشارة إلى عدم تقبله للعقاب الذي يراه الشاعر مفاجئا .

وهكذا سار ابن خلدون في تصويره الفني لمعانيه وأفكاره دون أن ينغمس في روح القصيدة فيكثر من الخيال و المبالغة في اختيار الصور التي تجعل المتلقي يخرج عن محيط النص الشعري إلى أبعد حد يبلغه به هذا الخيال .

وإذا كانت هذه القصيدة لا تزخر بكثرة الأخيلة والصور الفنية ، فإنها تحمل رقة متناهية في طياتها و تناغما موسيقيا وفرته لها خفة الوزن فهي

على البحر الخفيف الذي وصفه الخليل ابن أحمد بالخفة والحركة ، إضافة إلى القافية التي تعد جزءاً لا يتجزأ من موسيقى القصيدة .

ودعم الشاعر هذه الموسيقى بالتجنيس والمطابقة والتكرار في بعض الأبيات : أجرني ، أجرى . تضعني ، مضيعا . دعا ، داع ...

وفي الأخير نستطيع أن نقول إن القصيدة جرت بعفوية لا تكاد تحمل شيئاً من التكلف أو من التصنع الذي كثيراً ما يلجأ إليه الشعراء في مدحهم ، ذلك أن ابن خلدون لم يحفل فيها بكثير من الأمور الفنية ولم يقيد نفسه ببعض المطالب الجمالية التي لو شاء توفيرها لما صعب عليه ذلك ، وكان وجه هذه القصيدة أكثر جمالا و شاعرية .

ولعله يجدر بنا أن نذكر أن ابن خلدون كان يعلم أن جُلَّ الشعر ، وكثيراً من الأدب في عصره لم يكن عفويا ومطبوعا، بل كان الأدباء يجرون فيه مجرى التصنع ويكلفون أنفسهم فيه مشقة الجهد ، ولذلك كان في نفسه أن يخالف هذا التيار السائد حتى ينفرد بملامح شخصيته ويسلك في شعره مسلكا خاصا به .

وفي الأخير، إذ شئنا أن نتحدث عن الاعتذار في شعر ابن خلدون ، فإننا لم نعثر إلا على قصيدة واحدة في كتابه التعريف ، كما أنه لم يذكر هو نفسه أنه اعتذر في موضع آخر . على الرغم من أن حياته كانت حافلة

بالأحداث ، فما أكثر ما وشى به الحساد وأفسدوا ما كان له من المكانة الرفيعة في قصور السلاطين والملوك .

وقد نستنتج من هذا أن ابن خلدون لم يعتذر ليرجع إلى وظيفته فحسب ، بل أنه أحس بالخطأ الذي وقع فيه فأراد توضيح ذلك للأمير والسultan .

كما يمكن أن نلاحظ أنه أحسن انتقاء المطع الافتتاحي الذي يشد المتلقي إليه ويجعله أكثر انتباها وتشوقا وانتظارا لما سيقوله في باقي القصيدة . إضافة إلى أنه أحسن الانتقال من موضوع إلى آخر . وإذا كان قد أفرد قصيدته للاعتذار والاستعطاف فقد طغى عليها المدح للسultan حيناً وللأمير حيناً آخر ، فهو وإن كان قد تحدث عن نفسه وعن العزل والفتوى ، فقد استطاع أن يحافظ على سمو مكانته وعزّة نفسه فلم يحط منها ، ولم يقلل من قيمته حتى وهو يستعطف فإنه اكتفى بذكر بعض المصائب التي تعرض لها مصورا قساوة الدهر ونوائبه ، مظهرًا في الوقت نفسه تجلده وصبره على كل ذلك .

أما المدح الذي خص به الأمير وسلطانه الظاهر فهو مدح تغذيه القيم الأخلاقية والدينية ، التي تجلت في صفات الجهاد في سبيل إحقاق الحقّ

الفصل الثالث :

التشوق والحنين عند ابن خلدون

وإبطال الباطل ، وفي وصف السلطان ببعض الخصال التي يتصف بها كل كريم .

وعلى خلاف ما نجده في اعتذاريات النابغة وغيره من التركيز على الجانب الفني في تجديد المعاني وابتكار الصور ، فإن ابن خلدون في قصيدته لم يهتم كثيرا بهذا ، بل ترك لنفسه العنان في التعبير بصدق عما كان يختلج في أعماقه من معاناة داخلية ، وهو ضحية الفتن وانقلاب الأمراء والحكام على الملك ، لذلك كان اعتذاره مختلفا ، وهو لا يدافع عن نفسه بقدر ما يحاول توضيح ما حدث له ولغيره من العلماء والقضاة .

ولابن خلدون نفس طويل في هذه القصيدة ، إذ ظل هادئا هدوء العلماء ، فلم يظهر عليه خوف ولا قلق ولا غضب لما ألم به ، بل طفق ينتقل من الاعتذار إلى الاستعطاف والمدح حتى انتهى إلى نظم سبعة وستين بيتا . ولعله نجح من خلالها في إبعاد التهمة عنه ، وإزالة اللبس والشبهة الذين أحاطا به . ولو شاء ابن خلدون أن ينثر هذه القصيدة لكتب لنا قصة جميلة ، لكنها مشحونة بالحزن والآلام ، إنها قصة الكتاب والمتقنين على وجه العموم ، الذين كانوا ضحايا السياسة والسلطين في تاريخ الدول الإسلامية . وهو نفسه كان شاهدا على بعض هؤلاء .

إن الحديث عن التشوق و الحنين في شعر ابن خلدون ، يفرض علينا أن نعود إلى كتابه " التعريف " الذي ذكر فيه بعض شعره . فهو كثيرا ما يوضح فيه للقارئ تلك الظروف التي نظم فيها هذا الشعر .

وبما أن الشاعر كان كثيرا التنقل والترحال ، لا يستقر في مكان إلا ليغادره إلى مكان آخر ، فقد كان يعبر ، عندما يشتد شعوره بالغربة ، عن ذلك الشوق والحنين إلى أهله وموطنه .

ومن أمثلة هذا الشعر المعبر عن الحنين قوله بين يدي السلطان أبي سالم :

سَلَوْتَهُمْ إِلَّا ادِّكَارَ مَعَاهِدِ

لَهَا فِي اللَّيَالِي الْغَابِرَاتِ غَرَائِبُ

وَإِنْ نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْهُمْ يَشُوقُنِي

إِلَيْهِمْ وَتَصْيِينِي الْبُرُوقُ الْوَاعِبُ

وهذان البيتان ، كما ذكرنا سابقا ، هما جزء من قصيدة طويلة نسيها الشاعر . وقد قدّم لها بقوله : " ... وخاطبته بين يدي ملكه ، مستعظفا

بقصيدة... وهي طويلة ، نحو مائتين بيتا ، ذهبت عن حفزي .⁽¹⁾ غير أن المتمعن في قراءة آثاره لا يعدم نماذج أخرى قد يكون نظمها ، ولكنها لم تصل إلى أيدينا لغياب المرجعية ؛ ومع ذلك ، فقد أطلعنا على قصيدة في غرض الشوق أو الحنين إلى وطنه ضمنها استعطافه للسلطان أبي سالم الذي كان قد وقف دون ارتحاله وعودته إلى أهله حين ضاق به الحال واشتدّ به الحنين إلى الوطن الأصلي .

وهو يعبر فيها عن ضيق حاله بفاس ، وعمّا لقيه من السلطان من تجاهل وإعراض ، فكان ذلك مما جعله يسأم المقام بها ، وقد شعر بقلّة الشأن ، ودنو المنزلة ، فيقول: " ... ثم حملني الادلال عليه أيامَ سلطانه ، وما ارتكبه في حقّي من القصور بي عما أسمو إليه ، إلى أن هجرته ، وقعدت عن دار السلطان ، مغاضبًا له ، فتتكرّر لي ، وأقطعني جانبًا من الإعراض ، فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية " .⁽²⁾

ولا يتردد الشاعر في إظهار معاملة السلطان أبي سالم له . وهي المعاملة التي حالت دون تحقيقه آماله وطموحه . فأزمع الرحيل والعودة

(1) التعريف . ص 70/69.

(2) المصدر نفسه ص 80.

إلى موطنه . غير أنّ السلطان ظل يمانع رحيله ويلح في المنع، فبدأ أثر ذلك واضحا على نفس الشاعر الذي لم يجد من وسيلة يعبر بها عن ذلك الوضع ، وعن تلك الحال ، غير هذه القصيدة التي كانت متنفسا له ، ونافذة يطل منها على أهله وموطنه . وكان عليه أن يجد الفرصة المناسبة كي يخاطب السلطان بما يريد ، وهو ما يدل على أن العلاقة بينهما لم تكن على أحسن ما يرام . وكانت هذه المناسبة هي عيد الفطر ، فخاطبه :

هنئاً بصوم لا عداه قبول

وبُشرى بعيدٍ أنتَ فيه منيلٌ.

ويمكن اعتبار هذه القصيدة طلبا للإذن بالرحيل ، والتماسا من الشاعر للعودة إلى موطنه بإفريقيا . وهي على العموم تبدو جميلة مؤثرة . ويمكن القول إنها خطاب لم يقصد الشاعر منه إلى الإقناع ، بقدر ما قصد إلى التأثير على المخاطب بالصور الشعرية التي أوردها . وهي إلى جانب ذلك ، تجمع بين أغراض شتى ، فيمتزج فيها المدح بالاستعطاف ، والتشوق بالحنين .

إن هذه القصيدة التي بين أيدينا تعتلج بالمشاعر والأحاسيس ، وهي غنية بالإشارات والرموز الدلالية . ومن ثم ، تحتاج إلى التحليل

والتفكيك ، دون أن تكون غايتنا منهما هي إزالة معالم جمالها الشكلي الذي يكمن فيه سر تأثير الشعر ، وإنما نعتبر ذلك وسيلة منهجية لدراسة هذه القصيدة . وقد اتبعنا في هذه الدراسة الخطوات التالية :

1- فضاء القصيدة:

- إن القصيدة غنية بمكوناتها وجماليتها لما احتوته من شحنات عاطفية ، إذ جسّد الشاعر كلّ فكرة تجسيدا وجدانيا ، حيث عبر عن كل الأفكار التي تناولها بالشكل الذي يناسبها وذلك من خلال حالة شعورية خاصة ومتبادلة بين الباث والمتلقي .

وهذه الشحنة العاطفية المكثفة يتوصل إلى تعيينها اعتمادا على مفعولها الذي هو من ضربين :

أ - **المفعول الطبيعي** : وهو الذي نتوصل إليه من خلال البنى اللغوية في حدّ ذاتها ، وبعبارة أخرى ما ينتج عن تفاعل وحدات لغوية تضيفي على النص كله تماسكا وانسجاما في بنائه العام ، وهو ما يفضي إلى مستوى دلالي قريب ، كاستعماله لصيغة الجمع للتضخيم أو المبالغة " تخطفت " ؛ " المعلوات "

ب - **المفعول المصاحب** : وهو ما تفضي به الدلالات القريبة من دلالات بعيدة ، وما تحمله الوحدات اللغوية من إشارات وإيحاءات بعيدة عن

الاستعمال الطبيعي للغة ، وهو ما عرف عند النقاد الغربيين بالانزياح ، إذ يقول دافيد كوهن " ... في لغة جميع الشعراء يظل موجودا برغم الاختلافات ... " (1) فهو يرى أن الشعر نوع من اللغة ، وهذا ما يفتح أمامنا اتجاهات ثنائيا للغة الشعر ، المعنى العادي أو الطبيعي والمعنى المجازي الذي يكون هذه الثنائية للغة الخطاب الشعري . والمعنى المجازي هو الذي يجعل من الخطاب الشعري كيانا مستقلا عن المؤثرات الخارجية ؛ لأنه في الواقع عندما يفرغ الشاعر من بناء نصه ، يتحول من باث مؤثر إلى متلق خاضع لعملية التأثير .

ولعل الشاعر بنى خطابه لبلوغ غاية معينة وهي التأثير على المتلقي الذي هو السلطان ، ولم يكن ذلك سهلا على ما يبدو ، لأن الشاعر استعمل وسائل البناء اللغوي ليحول المنع إلى قبول فيسمح بانصرافه وارتحاله .

فكان لزاما على ابن خلدون أن يوظف ما توفر له من وحدات لغوية شعرية تزيح عقل المتلقي عن المعنى العادي المؤلف إلى تعبير خيالي قد يكون مستحيلا : تكاد له صم الجبال تزول " (16) . وقبله قوله :

ويذهب بي ما بين يأس ومطمع

زمان بنيل المعلومات بَخيلُ

(1) نزار التجديتي ، نظرية الانزياح عند دافيد كوهن ، مجلة دراسات ، العدد الأول ، 1987 ، ص 52 .

ولقد عبر الشاعر عن الغاية من رسالته في خطابه هذا من خلال أربعة عناصر كبرى هي :

- 1- أ – المدح والتهنئة للسلطان أبي سالم تمهيدا لطلب الإذن بالرحيل (1-8)
- 2- أ – شرح وتوضيح دواعي الرغبة في الرحيل (9-14)
- 3 – أ – التذكر والحنين وإظهار الاشتياق (15-18)
- 4- أ – الشكوى والمعاناة، والإشارة إلى سوء المعاملة (19-30)

ومن خلال الأفكار التي ذكرنا ، يتضح لنا أن النص مؤسس تأسيسا منظما لا يشوبه أي خلل أو نقصان ، فقد بدأ بتوطئة مناسبة لقصيدته تمثلت في المدح والتهنئة ثم مر تدريجيا إلى ذكر الأسباب التي دفعت به إلى الرغبة في الرحيل . وهذا قبل أن يصل إلى الموضوع الجوهرى حيث يتجلى أنه قد قوى مكونات بنياته ، وأثرى شحناته العاطفية ، ويتضح ذلك من خلال إسهابه في ذكر أشواقه وتعلقه بزمان آفل لم يبق له منه إلا الذكريات ، ولم تملأ أعماقه الذكرى والحنين ، نتيجة البعد – كما قد يتبادر إلى ذهن القارئ – فحسب ، وإنما لأنه أدرك أن الأيام تقسو عليه والعمر يجري به دون تحقيق ما كان يصبو إليه من المعالي ، وهي إشارة غير مباشرة إلى معاملة السلطان له .

ومن ثم نرى أن الشاعر قد أدرك غايته ، وبلغ ما أراد الوصول إليه ، فأبدى حكمة وصبرا كبيرين وفضل أن يساير الظروف على أن يقف في وجهها .

تقنية التأليف :

إذا تحدثنا عن تقنية التأليف ، فإنه يتبادر إلى الذهن حضور الأدوات التي قام بتوظيفها الباحث، فهو يحتاج إلى وسائل خاصة لبناء نصه ، ليتمكن من إيصال رسالته إلى الملتقى .

وابن خلدون اعتمد في خطابه هذا على معجم وظيفي زاخر بالعبارات الموحية ، والتي شكلت كيانا مشحونا بالأخيلة و التعبير الحية وبعثت فيه حيوية ، لذا جاءت القصيدة في ثلاثين بيتا وهي طويلة بفضل الأدوات التي ركّز عليها في بنائه ولا سيما الطباقات يوم / ليلة - صباح / أصيل - نازح / حلو - ياس / مطمع - نيل / بخيل - الخير / الشر - عزيز / هان

واعتمد الشاعر في الأدوات المؤلفة بنصه على الجنس في قوله: الحمول / حمول ولكنه قليل إذا ما قورن بعد الطباقات .

كما وظف ألفاظ الاشتياق كقوله : ظل / ظليل - غالت / غول - ترد / مرادي - منزل / نزيل .

ووظف أسلوب الشرط ممثلا في بعض الحروف كقوله : إذا أنا لم ترضى / فلا قربتني ... والفاعل ظاهراً أو مقدرا حيث يذكر الفعل في الشطر الأول بينما يذكر الفاعل في الشطر الثاني (21) .

والأمر نفسه حدث مع المبتدأ وخبره في البيت (17) ومع إن وخبرها (10) .

ويمكن القول أن الشاعر لم يوظف كان وأخواتها في نصه هذا واقتصر على استعمال إن وأخواتها .

والجمل المنفية مثل : ما رمت ← فهو جزيل - ولا رغبة عن ← لظنّ واستعمل الأسلوب الإنشائي الذي تمثّل في عدد من الاستفهامات : إلامّ مقامي ، ثم أما الليالي ، أ أحبابنا ، وفي بعض صيغ الأمر .

وفي القصيدة بعض أنواع الصور والتعابير المجازية لا سيما الاستعارة والكناية والتشبيه ، فالقصيدة جاءت حافلة بالخيال الشعري ولا يكاد يخلو بيت واحد من أحد أنواع المجاز .

ولعل الشاعر أتى بهذا الكم الكبير من الصور ، لأنه رأى بأنها تدعم موقفه الشعوري ، وهو يعبر عن إحساس خاص به قد لا يكون من السهل أن يشاركه فيه آخر ، لذا حاول الإكثار من هذه التعابير المجازية ، والتي تقرب المعنى البعيد بوسائل أو صور حسية ، تجسد الأفكار والمعاني للمخاطب (المتلقي) . وهذا ما يوافق رأي بعض الباحثين : الإقناع والتجميل ، وإبراز المعاني العقلية في الصور الحسية بكمال البيان ، ودفن المخاطب للانتباه إلى المقدمات والحجج " (1) . وقد وردت بعض التشبيهات : " كأنني تُحْطِفْتُ " ؛ كأنما يمثل لي نويّ " ؛ " كأنما

Michel de gueru : sémantique de la métaphore (1)
Et de la métonymie , Paris 1972. P.P.66.76.

عن شعر الفقهاء. ص189

تجودُ بنفسي " مع ذلك فإن التشبيهات قليلة ، بينما جاءت الاستعارات موزعة في أغلب أبيات القصيدة مثل : " توارت بأنبائي البقاع " . " فطارت بقلبي أنة عويل " ، " أجادب فضل العمر " ، " زمان بنيل المعلوات بخيلُ " أما الليلي لا تردُ خطوبها ، " تحيل الليلي "

وكما هو شأن الاستعارة ، فإن الشاعر أكثر من الكنايات ، فإذا لم يورد استعارة في بيت القصيدة فإنه يوظف الكناية التي تعد أحد أبرز التعبير المجازية ، وهي تقدم صورة يصف فيها الشاعر ما يرمز إليه لكي يقرب الأفكار غير الحسية إلى ما يدركه العقل ويتصوره الخيال مثل : " تضل - ضليل " فهي كناية عن رغد العيش ، " غالت ركابيَّ غولُ " وهي كناية تعرضه للمخاطر . و " ساء صباح بينها وأصيل " وهي كناية عن سوء أحواله وتلون أوقاته بالحزن . " صم الجبال تزول " وهي كناية حجم المصاعب التي عاشها وفي الصورة مبالغة واضحة .

ومهما يكن ، فإن ابن خلدون استطاع أن يؤلف لقصيدته هذه جملة من الصور الخيالية ، التي كونت شكلا من أشكال الرؤية الشعرية جعلت الخطاب بمثابة لوحة فنية قابلة لأكثر من رؤيا و أكثر من تفسير و قراءة . وهذا ما يجعل القصيدة الشعرية تختلف عن سائر الأجناس الأخرى . يقول دافيد كوهن :

"... وهذه استعارة خطيرة إذا كانت تشير إلى الدال sonore، ولكنها ستكون استعارة صائبة إذا كانت تشير إلى المدلول، فالشعر هو نشيد المدلول" (1).

وامتازت القصيدة بالمؤثرات العاطفية المتعددة، فكانت زاخرة بالصور الشعرية، التي بدت تقليدية للآخرين لا أثر للإبداع الشخصي فيها، وكثيرا ما كانت هذه الصور، عبارة عن إعادة تركيب، لذا فقد كان نصه بمثابة عملية هدم و بناء، إذ كان يأخذ صورة معروفة ابتدعها من سبقه إلى حقل الشعر فيحلل تفاصيلها ليبنها من جديد حتى تتناسب مع المعاني أو الأفكار التي شاء التعبير عنها.

(1) الدراسات، ص. 65.

غير أن عملية الهدم والبناء في إبداع هذا النص لم تكن مباشرة أو حقيقية ، حتى نستطيع القول إن قصيدته مؤلفة من مجموعة تناصات ، وإنما بدت لنا وكأنها عفوية طبيعية من مخزون ذاكرة الشاعر لا أكثر ، فلم نعثر على تناص واحد مباشر مع كل ما يمكن أن يشكل الموروث الثقافي للشاعر كالقرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي إلا في قوله " لها غرر وضاحة وحجول " وهي صورة شعرية قديمة معروفة . وقد يكون السر في غياب التناص أن ابن خلدون كان يحفظ ، وينسى كل ما يحفظه في أثناء عملية الإبداع ، فيأتي بناؤه نابعاً منه لا من مؤثرات خارجية .

(3) محاور القصيدة :

من المتعارف عليه أن محاور أي خطاب لا تخرج عن دائرة الضمائر الثلاثة : المتكلم ، والمخاطب ، والغائب .

(1) المتكلم : من الطبيعي أن يسيطر هذا الضمير على الضميرين للآخرين لكون هذا الخطاب يعكس حالة شعورية عاشها الشاعر ، فأراد أن يبثها في المتلقي ، الذي هو السلطان أبو سالم ، ثم القارئ من بعده .

وإننا لا نستغرب هيمنة هذا الضمير على أجزاء القصيدة ، فهو
السبب في وجود نص الخطاب ، وإن كان قد استهل قصيدته
بالمخاطب :

هنيئاً بصوم لا عداه قبول

وبُشرى بعيدٍ أنتَ فيه منيلُ.

فالشاعر اختار هذا المطلع الافتتاحي لشدَّ انتباه المخاطب ، والاهتمام
بما يلي المطلع من رسالة شعرية .

لقد مهّد بهذا لغرضه الأساس ← صفحة 9

ولا سيما في الجزء الذي نخصه بالدراسة :

و والله مارمتُ الترحلُ عن قلى

ولا سخطة العيش فهو جزيل

(9) ، (10) ، (11) ، (12) ، (13) ، (14) ، (15) ، (16) ، (17) إلى آخر

القصيدة :

إذا أنا لم ترد الحُمول مدامعي

فلا قربتني للقاء حمولُ.

وقد ورد كضمير متكلم منفصل (أنا) أو كضمير متصل كثناء المتكلم : رمتُ - لقيتُ - تُخطفُ ... أو يائه : اغترابي - فؤادي - عني - ركابي - بقلبي - لي ... أو كهمزة المتكلم في المضارع : أجاذب - أداري أغدو.

وهذا ما خلق في القصيدة جوا وجدانيا خاصا بالشاعر ، وكأنه يتحاور مع نفسه ، وغايته من وراء ذلك هو إيصال المعاناة الداخلية للشاعر بسبب المنع دون التصريح بالدواعي الحقيقية للرغبة في الرحيل .

(2) المخاطب :

لقد وظف الشاعر صيغة المخاطب في الأبيات الثمانية الأولى من قصيدته لأنه قصد إلى بث رسالته في المتلقي ، فخاطبه بالضمير المنفصل " أنت " في المطلع ، ثم في البيت الثالث ثم تاء الماضي المبني للمجهول (2) ثم كاف المخاطب (3) ، (4) ، (5) ، (6) ، (7)

(3) الغائب :

لإثراء أسلوبه ، وتويع خطابه أورد الشاعر ضمير المؤنث في القصيدة (11) ، (12) ، (13) ، (14) والضمير المنفصل المفرد (9) وحتى يسلم خطابه من الركود .

فالشاعر بهذا التنويع في محاور القصيدة استطاع أن يوجد نوعاً من الحياة في نصه الشعري ، فجاء خطابه وكأنه كائنٌ يتحرك من جهة إلى أخرى .

(4) البنى والمعجم :

امتاز هذا الخطاب بثراء معجمه اللغوي ، مما طبع النص بالطول من جهة ، وبالرقة في الأسلوب من جهة أخرى ، فتنوعت البنى التي فاضت بشعرية الصور وعمق المعاني .
وبالرغم من أن الشاعر قد أعاد بناء هذه البنى ، فإنه قد أحسن كيفية تشكيلها مرة أخرى ، فكانت صورة عاكسة لما يعتلج بداخله مشحونة بأحاسيسه العميقة .

والنص مجموع أنات صدرت من فؤاد متألم ، يعاني من المشقة وظلم الأيام وخطوب الدهر . ومن الكلمات الموحية التي أسس عليها نصه ، نذكر: " الليلي ، مواسم ، المأمول ، صن الزمان ، رسم الأمانى ، راجيا ، الترحل ، شجاهنّ ، نازح ، اغترابي ، نُخْطَفْتُ ، غالت ، شوق ، مدامعي ، يأس ومطمع ، بخيل ، تملكني ، أمان خوادع ، مطول ، ترد خطوبها ، كبدي - فلول ، يروغني ، عليلا - لا يضام " .

ولئن اختلفت مواقع هذه الألفاظ في جملها من مضاف إليه وخبر و نعت ، وفاعل ، وفعل ... فإنها قد أسهمت كلها في بناء أساس الخطاب وأضفت عليه من شعريتها ما فجر من مشاعر صادقة عميقة قد يصعب على الشاعر نفسه ، أحيانا أن يعبر عنها تعبيراً دقيقاً. ويمكن القول إن الشاعر قد وفق إلى حد كبير في نقل أحاسيس الشوق والحنين ، كما استطاع أن يبث في المتلقي تصور الحزن والأسى ويؤثر فيه ، وتلك غاية يشرئب إليها الخطاب الشعري .

وابن خلدون ، وإن كان يطمح إلى الحصول على الإذن بالرحيل ، فإنه قد نجح في تصوير حنينه إلى أرضه ومسقط رأسه حيث نشأ ، وقضى ريعان شبابه . ولم يكتف بوصف هذه الحالة الشعورية التي يمر بها كل مغترب طال اغترابه ، بل لم يفته أن يذكر لمخاطبه تشوق أحبائه وأهله إليه ، وحزنهم على فراقه وبعده .

فالنص ينبئ عن وفاء وإخلاص للأهل ، وتعلق شديد بالوطن الأصلي . وهذا ما جعلنا نصنف النص ضمن نصوص التشوق والحنين . فهو صرخة قوية عبرت عن محنة الشاعر ومعاناته وشكواه من الحكام والأيام .

فقد تمكن الشاعر من أن يجسد للقارئ أحاسيسه الخاصة به ، إذ لم يكن ليشاركه فيها أحد غيره . وقد استعار لها المحسوس من الصور

المعبرة التي تنقل الشعور من الباث إلى المتلقي ، فهي غنية بأساليب فنية جميلة تنطوي كلها على دلالات موحية كقوله :

فعصر ك ما بين الليالي مواسم

لها غرر وضاحة وحجول

قد جعل زمانَ السلطان مواسمَ ، وكان أيامه أعياداً ومناسبات سعيدة ، وجعل لهذه المواسم غرراً وضاحة وحجولاً بيضاء وفي ذلك تشبيه لها بالفرس الجميلة .

وعلى الرغم من ازدحام النص بالصور الشعرية ، فإن الشاعر لم يقصد إلى العناية بالأسلوب كما كان الشعراء والأدباء المغاربة يفعلون . فالأساليب التي وردت في القصيدة تبدو عليها صفة العفوية ، والبعد عن التكلف والمبالغة ، وهو ما يضفي عليها طابع سمة المطبوع .

تمثلت شعرية الخطاب في الانزياحات التي كان الشعراء السابقون قد ابتدعوها واستعملوها . فإن أغلب الألفاظ الشعرية تكون على المجاز لا على الحقيقة ، وهو ما يجعل الشعر متميزاً في ألفاظه عن النثر . فالشاعر لم يشأ أن يصارح السلطان بما كان يختلج في صدره من عدم الرضى عن مكانته عنده ، فرمى بثقل همومه وخيبة أمله على الدهر والزمان ، والليالي التي لم تتله ما كان يطمح إليه ، ولا جادت عليه بما كان يصبو إلى طلبه .

وقد صورّ الشاعر ما صنعت به الليالي بتساؤل استنكاري ، وكأنه ضاق ذرعا بالمآسي التي تكبدها وهي صورة ليست مستحدثة ، لأنّ العرب تعودت التعبير عن الحزن وجلل المصيبة بالكبد المفلول .

وتميز أسلوب الشاعر في هذا النص بالانسجام بين وحداته اللغوية والأفكار التي أراد التعبير عنها ، وقد طبعه إيقاع جميل نجم عن اختيار الشاعر للبحر الطويل الذي اتسع للمعاني التي عبّر عنها بما توفره تفعيلاته من وقع موسيقي جذاب . ويبدو أن الشاعر قد وفق في اختيار حرف اللام رويًا لقافيته ، وغالبا ما يكون لهذا الحرف نغمة مميزة في سمع المتلقي .

وفي الأخير نحاول أن نذكر بعض الخصائص الفنية التي اهتمينا إليها من خلال تحليلنا لنص الاشتياق في هذا الفصل .

فقد تبين لنا أن القصيدة قد حملت في ثناياها حديثا عن الوطن والذكريات والحنين إلى أيام الشباب ، والشوق إلى الأهل والتعبير عن ألم الغربة والبعد عنهم . وقد اختار الشاعر لهذه المدلولات أسلوبا متميزا بثرأ المعجم اللغوي ، وهو المعجم الذي طغت على ألفاظه صبغة العفوية والتلقائية ، فجاءت وحداته الوظيفية متناسبة مع موضوع الشوق، فأضفت على نصه، بما حملته من مشاعر صادقة ، شعرية خاصة به ، وجمالا مؤثرا في القارئ .

الفصل الرابع :

المقومات الفنية لشعر ابن خلدون

قد يبدو من المبالغة أن نقول إن شعر ابن خلدون ينتمي إلى شعر الفقهاء ، لأن هذه الصفة لا تلازمه حتى تصير قيدياً له أو علامة من علامات هذا الشعر لا تفارقه ، ففي كثير من شعره يتجاوز ابن خلدون الحدود التي رسمها الفقهاء لأنفسهم فيمدح الملوك والأمراء مبالغاً تارة مستعطفاً طوراً . ثم إن كثيراً من شعراء المغرب كانوا فقهاء من فقهاء كانوا شعراء (1) حتى أن الشعر لا يصبح ميزة عند بعض الفقهاء ، كما أن الفقه لا يصير ميزة عند بعض الشعراء . وقد كان ابن حزم الظاهري 384-456 هـ فقيهاً متضلعا في الفقه ، وكان له رغم ذلك شعر جيد طرق فيه أغلب ما يعرفه الشعر من أمور الحياة ، ولم يكن في نظره الانشغال بالفقه قيدياً على الشعر بقدر ما كان ضرباً من ضروب الرقابة الأخلاقية ترشد الشاعر في مسلكه الشعري وتمنعه من أن ينحرف إلى الهزل المخل ، أو ينزل إلى المجون الذي هو مما لا يليق بمنزلته وسمعته ومقامه في الناس والمجتمع ، ولعل ما يؤكد ما تذهب إليه خلو شعر ابن خلدون من الهجاء . فقد كان هذا الغرض مهجوراً عند كثير من المغاربة والأندلسيين لعدم مناسبته للقيم الأخلاقية التي ترتفع بالشاعر عن ذكر عيوب غيره ومثالبهم . وكان ابن حزم قد أشار إلى عواقب الهجاء الوخيمة عندما قال : " وشعر الهجاء أشد ضروب الشعر إفساداً لأنه يهون على المرء كونه في حالة أهل السفه المتكسبين

بالخساسة وتمزيق الأعراض وانتهاك الحرمات .. " (1) ويمكن أن نعد ما قاله ابن حزم صادقا على شعر المغرب لأن النزعة الدينية كانت عند شعرائه أشد وأقوى منها عند شعراء الأندلس الذين شاعت عند بعضهم ضروب من الخلاعة والمجون .

إن النزعة الدينية لا يمكن التماسها عند ابن خلدون إلا من خلال مدائحه النبوية جريا على عادة ملوك المغرب، وفي ذلك التحرج الذي كان يشعر به وهو ينظم الشعر. ولعل ذلك مما دفع به إلى الانقطاع عنه . وهذا ما يدعوه الدكتور إحسان عباس " بالرقابة الذاتية " وهذه الرقابة هي التي دفعت ببعضهم إلى الندم على ما قالوه من شعر . غير أن ابن خلدون لم يكن زاهدا ولم يظهر في شعره ما يدل على أنه ندم على ما قاله من شعر لأنه لم يصدر عنه ما يخرج عن هذه الضوابط الأخلاقية التي كانت تلازمه في شعره وفي

(1) إحسان عباس ، دراسات في الأدب الأندلسي تونس ، الدار العربية للكتاب ،

حياته ، ولذلك يجب أن نقول أن الغزل الذي نجده مبعوثاً في ثنايا بعض قصائده إن هو إلا غزل تقليدي على عادة الشعراء الذين كانوا يقفون على الأطلال ويذكرون أحبة رحلوا وشباباً قد أفل وأياماً قد ولت ليكتمل لهم الموقف " الدرامي " الذي كان ضرورة من ضرورات الشعر القديم .

أسرفن في هجري وفي تعذيبي

وأظن موقف عبرتي ونحبي

وأبين يوم البين وقفة ساعة

لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

غربت ركائبهم ودمعي سافح

فشرقت بعدهم بماء غروب .

وكما خلا شعر ابن خلدون من الهجاء فقد خلا من الرثاء . والمطلع على كتاب التعريف يستغرب موقفه من وفاة عائلته غرقاً في البحر دون أن يحرك ذلك قريحته الشعرية ، بل أشار إلى هذه الحادثة في معرض سيرته وهو بمصر ، ولمح إليها في القصيدة التي مدح بها الملك الظاهر واستعطفه ليعفو عنه (1) ... ويمكننا أن نرد ذلك إلى شدة صبره وقوة تحمله للمصائب

(1) أنظر ظروف هذه القصيدة في الفصل المخصص للاعتذار

من هذه الرسالة

وتجلده أمام محن الدهر ونوائبه ، فلم يحمل نفسه على البكاء لما قد يجده فيه من مظهر الضعف والانكسار أمام قسوة الموت وحتميته .

لقد أشار الشاعر إلى ما يشعر به من حزن وهو يستعطف الملك

الظاهر ؛ على بنيه وأهله :

وجمعتم من شمله فقضى

الله فروقا وما قضى مأموله

غاله الدهر في البنين وفي

الأهل وما كان ظنه أن يغوله

غير أنه لم يفرد لهم رثاء خاص بهم ، ولا صاغ هذا الحزن الذي

يشعر به في شعر يخلد فيه ذكراهم ، فيكون من ثم شاعرا كباقي الشعراء .

إن غياب الرثاء في شعر ابن خلدون يُغلب جانب الفقه والإيمان منه

على جانب الشعر والفن ، ويجعل من حكمة الإيمان رقيبا على نزاعات

النفس وخلجات الوجدان .

وقد أشار عبد الرحمان مرحبا إلى هذا الجانب عند حديثه عن ابن

خلدون :

" وكان ابن خلدون فوق ذلك مؤمنا متدينا ، وذلك ظاهر في كل ما كتبه وأنتجه " (1) ولا نظن أنه يستثني الشعر الذي كان بعض ما كتبه وأنتجه . وبعد أن تحدث الدكتور عبد الرحمان مرحبا عن أدب ابن خلدون وبيانه وفصاحته أشار إشارة سريعة إلى أنه كان شاعر ا . لكنه كان ، في نظره لم يكن شاعرا مطبوعا ، يقول :

" .. وحتى الشعر فقد ألم به ، نظم قصائد ، ولكنه لم يكن شاعرا مطبوعا . فالشعر ليس ملكة له " (2)

فابن خلدون لم يكن شاعر مطبوعا ، وفي هذا الحكم شيء من الصحة والصدق . فهو نفسه يعترف في اللامية التي درسناها بأنه سهر الليالي في امتراء قريحته ونظم قوافيه التي كانت تستعصي عليه ، وأن شعره " حولي " :

(1) محمد عبد الرحمان مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية : بيروت - عويدات ، 1983. ط 3. ص 773.
 (2) المصدر نفسه . ص 773.

من بعد حول انتقيه ولم يكن

في الشعر حولي يعاب ويهمل .

وهذا حكم يصدره الشاعر نفسه . فالحولي من الشعر ما نقح وهذب .
فيكون من ثم أجود الشعر لأن الصناعة صقلته وأزالت عيوبه . فليس
المطبوع إذن ، بالضرورة ، أجود من المصنوع . بل تتوفر للمصنوع أسباب
المراجعة وإعادة النظر واستدراك النقائص . يقول ابن رشيق .

" ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا في غاية الجودة ، ثم وقع في
معناه بيت مصنوع لم تؤثر فيه الكلفة ، ولا ظهر عليه التعمل ، كان
المصنوع أفضلهما "(1) .

ولا ريب في أن " الصناعة " والجهد وحدهما لا يصنعان الشعر من
عدم . فكل شاعر ، وإن ظهر على شعره التصنع أحيانا ، فإن وراءه طبعا هو
الأصل في شاعريته ، فالجهد في الفن – أي فن كان – شيء معترف به ،
وإعمال الفكر فيه ضرورة تقتضيها الثقافة التي تصاحب هذا الفن وتصلحه

(1) ابن رشيق : العمدة ، مصدر سابق . ص 263 .

وتكون أحيانا رقبيا عليه ، والشعر كما قال ابن رشيق صناعة وثقافة يعرفها أصحابها .

وليس الشعر في واقع الأمر سوى إعادة لقراءات شعرية سابقة . والشاعر عندما ينتج شعرا إنما ينتج شعره وشعر غيره في الوقت ذاته . وقصة أبي نواس مع أستاذه والبة ابن حباب معروفة إذ طلب منه أن يحفظ عددا كبيرا من القصائد ثم أمره أن ينسى كل ما حفظه لترسخ في ذهنه قوالب الشعر وأساليبه ، ثم يبني عليها هو شعره وقد ذكر في " التعريف " بعضا من أشعار غيره . ولعله اختار أجودها . ومن ثم يكون ابن خلدون ناقدا لمعنى من المعاني - إذ اختار أحسن الشعر في رأيه - ووشح به كتابه . ولو أردنا أن نبحث عن شاعر بين ثنايا شعره لوجدنا أبا الطيب المتنبي أبرز من يظهر أثره على ابن خلدون ، وهذا يؤكد ما نذهب إليه من كونه ناقدا عارفا بخبايا الشعر ومسائل اللغة والأدب . وليس ذلك بالغريب فما من شاعر إلا ويحمل في نفسه أثرا من شاعر آخر . وقد كان الشاعر الفرنسي " لامارتين " يقول : " أريد أن أكون " شاتوبريان " أو لاشيء " .⁽¹⁾ وكان

(1) لامارتين : شاعر فرنسي رومانسي = 1790 - 1869 .
Les grandes auteurs français -
Edition bordas . Paris . 1966 - p 85.

أشهر شعراء العرب يروون أشعار غيرهم ويقلدونهم . وليس ابن خلدون في تأثره بالمتنبي وحيدا إذ حسبنا هنا أن نذكر ما لقيه أبو العلاء المعري في تعصبه للمتنبى من عنت وسوء معاملة في مجلس الشريف المرتضى .

وليس هذا المقام مقام موازنة بين الشاعرين ، فتلك مهمة يناط بها النقاد ، وقد تفرد لها بحوث خاصة . ثم إننا لا نملك من شعر ابن خلدون إلا قصائد معدودات لا تفي بغرض الديوان ، ومن ثم فلا إمكان للموازنة ولا سبيل إليها . غير أن ما يجب أن نثبته هنا – في نظرنا – هو هذا الإحساس من وجود أثر للمتنبى في بعض شعر ابن خلدون ، وحسبنا أن نقرأ قسما من هذه اللامية التي مدح بها أبا حمو التلمساني بمناسبة العيد والتمس منه فيها أن يسمح له بالعودة على أهله وقد طالت به الغربة في تلمسان :

هنيئا بصوم لا عداه قبول

وبشرى بعيد أنت فيه منيل

وهننتها من عزة وسعادة

تتابع أعوام بها وفصول

أجرني فليس الدهر لي بمسالم

إذا لم يكن لي في ذراك مقيل

إذا أنا لم ترض الحمول مدامعي

فلا قربنتي للقاء حمول .

أما للليالي لا ترد خطوبها

ففي كبدي من وقعهن فلول. (1)

فإننا نلمس فيها استثناساً بلامية المتنبي التي مدح بها سيف الدولة بعد

انتصاره على الورم :

ليالي بعد الظاعنين شكول

طوالّ وليل العاشقين طويل

يُبِنّ لي البدر الذي لا أريده

ويخفين بدرا ما إليه سبيل

وما عشتُ من بعد الأحبة سلوة

ولكنني للنائبات حمول

إذا كان شم الروح أدلى إليكم

فلا برحتني روضة وقبول

أما في النجوم السائرات وغيرها

لعيني على ضوء الصباح دليل

(1) التعريف : ص 80 - 81 - 82 -

ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتي

فتظهر فيه رقة ونحول (1)

وعلى الرغم من أن القصيدتين غرضاهما مختلفان إلا أن بينهما بعض التشابه على الأقل من حيث الشكل ، ونحن نعتزف أن الشكل وحده ليس مقياسا للمقارنة أو لإثبات أثر هذا الشاعر على ذلك. ومهما يكن من أمر فإن روحا من لامية المتنبي قد سرى في لامية ابن خلدون وليس ذلك مما ينقص من قيمته شيئا ، فالتراث الشعري ملك للجميع بل هو كالصرح الشامخ يترك كل شاعر عليه أثرا منه ، وقد تتشابه هذه الآثار في بعض ملامحها دون أن يحو هذا التشابه شخصية صاحبها وبصماته الدالة عليه . ومن ثم فلا ينقص من شاعرية ابن خلدون أن يكون قط أخذ شطر بيت المتنبي الذي يتحدث فيه عن الأعراب وبدواتهم وخروجهم على الملك :

(1) الديوان : شرح ناصيف اليازجي . بيروت . دار صادر .

الجزء الثاني . ص 158 . 159 .

وكانوا يروعون الملوك بما بدوا

وأن نبتت في الماء نبت الغلائق (1)

فأثبت هذا المعنى بلفظه وهو يتحدث عن البدو الثائرين على الملوك

الخارجين عن طاعتهم :

كانوا يروعون الملوك بما بدوا

وغدت ترفه بالنعيم وتخضل (2)

والملاحظ أن ابن خلدون قد سلك في الشطر الثاني مسلكا آخر فلم

يذهب مع أبي الطيب في كل معناه . ولا شك في أن عبارة المتنبى قد أعجبت

فاستعملها لنفسه ، وكان بإمكانه أن يجد لها بديلا . وفي ذلك حكم ضمني لا

يخفى على القارئ المتقطن .

وفي شعر ابن خلدون سيمة أخرى تجسدها المدائح النبوية التي كان

شعراء المغرب ينظمونها بمناسبة حلول ذكرى " المولد النبوي " ولعل

شعراء المغرب كانوا ينفردون بها دون غيرهم من شعراء المشرق . ويمكن

أن نعلل ذلك بوازع الدين الذي كان حضوره قويا عندهم وعند ملوكهم لما

(1) الديوان . ص 220 .

(2) التعريف . ص 255 .

كان من انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب ، وتمسك المغاربة به ، وبدعائم دينهم على وجه العموم . فقد كان الدين مصدرا من مصادر الإلهام عند شعراء المغرب ، كما كان السير على هديه من الصفات التي مدح بها هؤلاء الشعراء - و ابن خلدون منهم - ملوكة وأمراءه .

ولا نعتقد أن شعر ابن خلدون كله كان شعر مناسبات . ولو كان كذلك لكان من هؤلاء الذين لم يكن الشعر عندهم حاجة يشعرون بها في أغلب أيامهم، ولا هاجسا يرافقهم أينما حلوا وارتحلوا . بل نذهب إلى أنه كان يحمل روح الشاعر وهمومه ، ولم يكن الشعر عنده صناعة يبحث عن أسرارها ، ولا بهرجا يزين به قصائده . أجل إن أغلب الشعر الذي تركه لنا في كتابه " التعريف " هو شعر متصل بالملوك . ولكنه ولا شك لم يكن كله مدحا . وهو نفسه يقول بعد أن ذكر قصيدتين مدح بهما السلطان أبا سالم : " وأنشدته في سائر أيامه غير هتين القصيدتين كثيرا ، لم يحضرني شيء منه " (1) ونحن نستبعد أن يكون شعر " سائر الأيام " كله شعر مدح ، فيكون مدعاة للملل والاستهجان .

(1) التعريف ، ص 79 .

إن كتاب " التعريف " ليس ديوان شعر ، لذلك لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا إن ابن خلدون لم يكن مطالبا بتسجيل كل شعره في هذا الكتاب .
ولو فعل ذلك لخرج به عن الغاية التي وضعه من أجلها . ومن ثم يبدو لنا من الطبيعي ألا يذكر فيه إلا هذا الشعر الذي كانت له صلة وثيقة بالملوك الذين أقام عندهم رحا من الزمن ، وهم الذين كانوا يصنعون أحداث ذلك العصر الذي عاش فيه ، أو شعر أولئك الذين كانوا على صلة بهؤلاء الأمراء . ولا يجب أن ننسى أن بعض هذا الشعر حمل مدحا لابن خلدون وإعجابا به . كشعر ابن الخطيب ومراسلاته، له وشعر بعض الفقهاء ممن كانوا يعرفون مقامه عند الملوك ومنزلته فيهم .

لذلك يجب نعد شعر ابن خلدون في " التعريف " شاهدا على أحداث عصره وانقلاباته وفتنه ومآسيه . فيكون بذلك سنداً له يقوم عليه تأريخه لتلك الأحداث ، وركيزة يغني بها ترجمته لحياته . ومن ثم يكون الشعر خادماً للتاريخ دون أن ينقص ذلك من قيمته الفنية ، بل يكسبه قيمة أخرى هي قيمة "المصدر" الذي يعود إليه المؤرخون إذا ما اختلفوا في شأن من شؤونه، لأن الشعراء كثيراً ما يصحبون الملوك في غزواتهم وحروبهم ويشهدون انتصاراتهم ومصارعهم، لذلك فإنهم يكونون أوثق من المؤرخين الذين يكون بعدهم عن مصادر الأخبار مدعاة لاختلافهم . فتكون للشعر، انطلاقاً

من مكانته هذه هيبه وفخامة كما أشار إلى ذلك ابن رشيق .⁽¹⁾ ويؤكد هذه القيمة في موضع آخر قائلا :

" ورتبة الشاعر لا مهانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابة العلم وتكسوه

جلال الحكمة " (2)

فيصبح من الحكمة إذن أن يجتمع الشعر والتأريخ معا في كتاب ابن

خلدون ليتعاون على غاية واحدة .

ونستطيع أن نستنتج أن الشاعر لم يجدد في بنية القصيدة وفضل أن يحذو حذو القدماء ، فصرع المطالع ، وطرق عدة مواضيع في القصيدة الواحدة حيث كان يفتح شعره بالمقدمة الطللية أو بالمدح ، كما انه نوع في أغراض الشعر ، فمدح ، وتشوق واعتذر فاحسن اختيار الألفاظ المناسبة، وجعل لكل قصيدة رويًا يتماشى مع جوها العام . فاستعمل حرف السين ، و حرف الدال ، وحرف الباء كما انه وظف حرف اللام رويًا لثلاث قصائد مختلفة ، ولعل تكرار هذا الروي في اكثر من قصيدة إنما يدل على أن الشاعر كان يعلم ما يمتاز به حرف اللام من قوة و شدة في النطق .

(1) العمدة . ص 75 .

(2) المصدر نفسه . ص 84 .

بالإضافة إلى العينية التي أوردها ابن الخطيب في كتابه الإحاطة⁽¹⁾ ، فكان الهيكل العام للقصيدة القديمة هو النهج الذي سار عليه ابن خلدون في شعره كله ، ولم يتأثر بالأندلسيين و بعض المغاربة ، فلم ينظم الموشحات أو الأزجال ، لاسيما وانه تحدث عن أشعار العرب في مقدمته بإسهاب ، وخص صفحات منها للحديث عن الموشح و الزجل⁽²⁾ . ولم نعثر له على شعر في غرض الرثاء و الوصف ، و أننا نتساءل عما إذا كان الشاعر قد أهمل هذه المواضيع عن قصد ، خاصة وانه عاش حياة زاخرة بالأحداث . كما كان كثير الترحال فكيف لشاعر مثله أن يغيب وصف مظاهر الطبيعة في شعره . فلم يصف شيئا من مظاهرها التي كثيرا ما حركت نفوس غيره من الشعراء . وإذا كنا نقف موقف التساؤل عن غياب الوصف في شعر ابن خلدون ، فإننا نزداد استغرابا لخلو شعره من الرثاء كما ذكرنا من قبل . ولعل ما يجدر بالذكر هنا هو عدم رثائه لصديقه الحميم لسان الدين ابن الخطيب الذي قتل بفاس حيث كان الشاعر موجودا . وقد ألفيناه ، بالرغم من ذلك ، باكيا غير مرة علي فراق الاهل و الأحبة كقوله :

1 - لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة ، مجلد 3 ، ص 513 .

2 - وفي ذلك يقول : (أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذب

مناحيه و فنونه وبلغ التنسيق فيه الغاية استحدث المتأخر و منهم فنا

منه سموه بالموشح) المقدمة ، القاهرة دون تاريخ ص . 444 .

غربت ركائبه ودمعي سافح

فشرقت بعدهم بماء غروب

وكما لم نجد له رثاء للأشخاص ، لم نجد له أيضا رثاء للمدن الزائلة ، ولا تحسرا على الانقسامات ومظاهر الصراع التي كان يشهدها المسلمون في عصره ، بل انه وقف منها موقف المؤرخ المتأمل، المستخلص للنتائج والعبر. وفي رأينا انه ، بهذا الموقف ، يكون قد تخلي عن شيء من روح الشاعر.

ومن الناحية الشكلية فانه لم يكن بسعي وراء الأساليب الشعرية المبتكرة ، كما لم يحفل بالبديع ولا بالبيان وكل ما طبع شعره يكاد يكون عفويا ومرسلا .

ويمكن أن نلاحظ أن الشاعر ركز في شعره علي الجمال الروحي فأظهر الجانب الأخلاقي في الشعر شأنه في ذلك شأن جل الشعراء المغاربة لما اتصفوا به من أخلاق سامية، وروح دينية ، كانت بمثابة الرقيب عليهم كما ذكرنا .

ومهما يكن من أمر ، فان شاعرنا تجاوز شعر العلماء و الفقهاء واستطاع أن يدرك مكانة الشعراء ويتميز عن سائر شعراء المغرب.

ملحق :

جمع لشعر ابن خلدون

كان السلطان أبو عنان سلطان فاس قد امتحنه وسجنه، فخاطبه من السجن
يستعطفه، سنة 758 هـ

على أي حال لليالي أعاتب
وأي صروف للزمان أغالبُ
كفى حزنا إني على القرب نازح
وإني على دعوى شهودي غائبُ
وإني على حكم الحوادث نازلُ
تسالمني طورا وطورا تحاربُ
سلوتهمُ إلا اذكار معاهد
لما في الليالي الغابرات غرائبُ
وإن نسيم الريح منهم يشوقني
إليهم، وتصيبني البروق اللواعبُ

قال ابن خلدون :

" وهي طويلة، نحو مائتين بيتا، ذهب عن حفزي "

وقال يخاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي

وأطلن موقف عبري ونحيبي

وأبين يوم البين موقف ساعة

لوداع مشغوف الفوائد كئيب

لله عهد الظاعنين وغادروا

قلبي رهين صباة ووجيب

غربت ركائبهم ودمعي سافح

فشرقت بعدهم بماء غروبي

يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم

رحماك في عذلي وفي تأنيبي

يستعذب الصب الملام وإنني

ماء الملام لدي غير شروب

ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى

لولا تذكر منزل وحبيب

أهفو إلى الأطلال كانت مطلعا

للبدن منهم أو كناس ريب

عبثت بها أيدي البلى وترددت

في عطفها للدهر أي خطوب

تبلى معاهدها وإن عهودها

ليجدُّها وصفي وحسن نسيبي

وإذا الديار تعرضت لمتميم

هزته ذكراها إلى التشبيب

إيه على الصبر الجميل فإنه

ألوى بدين فؤادي المنهوب

لم أنسها والدهر يثنى صرفه

ويغض طرفي حاسد ورقيب

والدار موقنة محاسنها بما

لبست من الأيام كل قشيب

يا سائق الأظعان تعتسف الفلا

وتواصل الأساد بالتأويب

متهافتا عن رحل كل مذل

نشوان من أين ومس لغوب

تتجاذب النفحات فضل رداؤه

في ملتقاها من صبا وجنوب

إن هام من ظما الصباية صحبه
 نهلوا بمورد دمعهم المسكوب
 في كل شعب منية من دونها
 هجر الأمانى أو لقاء شعوب
 هلا عطفتم صدورهن إلى التي
 فيها لبانة أعين وقلوب
 فتوم من أكناف يثرب مأمنا
 يكفيك ما تخشاه من تثيرب
 حيث النبوة أيها مجلوة
 تتلو من الآثار كل غريب
 سر غريب لم تحجبه الثرى
 ما كان سر الله بالمحجوب
 يا سيد الرسل الكرام ضراعة
 تقضي من نفسي وتذهب حوبي
 عاقت ذنوبي عن جنابك والمنى
 فيها تعللني بكل كذوب
 لا كاللألى صرفوا العزائم للتقى
 فاستأثروا منها بخير نصيب

لم يخلصوا لله حتى فرقوا
 في الله بين مضاجع وجنوب
 هب لي شفاعتك التي أرجو بها
 صفحا جميلا عن قبيح ذنوبي
 إن النجاة وإن أتيت لأمري
 فبفضل جاهك ليس بالتسبيب
 إني دعوتك واثقا بإجابتي
 يا خير مدعو وخير مجيب
 قصرت في مدحي فإن يك طيبا
 فبما لذكرك من أريح الطيب
 ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى
 في مدحك القرآن كل مطيب
 يا هل تبغني الليالي زورة
 تدنى إليّ الفوز بالمرغوب
 أمحو خطيئاتي بإخلاصي بها
 وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
 يطوي صحائف ليلهم فوق الفلا
 ما شئت من خيب ومن ترقریب

إن رنم الحادي بذكرك رددوا
 أنفاس مشتاق إليك طروب
 أو غرد الركب الخلى بطيبة
 حنوا المغناها حنين النيب
 ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم
 إرث الخلافة في بني يعقوب
 الطاعنون الخيل وهي عوابس
 يغشى مثار النقع كل سيب
 والواهبون المقربات هو اتتا
 من كل خوار العنان لعوب
 والمانعون الجار حتى عرضهم
 في منتدى الأعداء غير معيب
 تخشي بواذرهم ويرجى حلمهم
 والعز شيمة مرتجى ومهيب
 ومنها بعد كثير :
 سائل به طامي العباب وقد سرى
 تزجيه بريح العزم ذات هبوب

تهديه شهب أسنة وعزائم
يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه
وسطا الهدى بفريقها المغلوب
يا ابن الألى شادو الخلافة بالتقى
واستأثروك بتاجها المعسوب
جمعوا بحفظ الدين أي مناقب
كرموا بها في مشهد ومغيب
لله مجدك طارفا أو تالدا
فلقد شهدنا منه كل عجيب
كم رهبة أو رغبة لك للعلا
تقتاد بالترغيب والترهيب
لازلت مسرورا بأشرف دولة
يبدو الهدى من أفقها المرقوب
تحيي المعالي غاديا أو رائحا
وجديد سعدك ضامن المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان، وفيها الحيوان
الغريب المسمى بالزرافة :

قدحت يد الأشواق من زندي

وهفت بقلبي زفرة الوجد

ونبذت سلواني على ثقة

بالقرب فاستبدلتُ بالبعد

ولرب وصل كنت أمله

فاعتضتُ منه بمؤلم الصد

لا عهد عند الصبر أطلبه

إن الغرام أضاع من عهدي

يلحى العذول فما أعنفه

وأقول ضل فأبتغي رشدي

وأعارض النفحات أسألها

برد الجوى فتزيد في الوجد

يهدي الغرام إلى مسالكها

لتعلى بضعيف ما تهدي

يا سائق الوجناء معتسفا

طي الفلاة لطية الوجد

وبغوا بما نقموا علي خلائقي
 حسدا فراموني بكل شنيع
 لا تطمعنهم ببذل في التي
 قد صنتها عنهم بفضل قنوعي
 أنى أضام وفي يدي القلم الذي
 ما كان طيعه لهم بمطيع
 ولي الخصائص ليس تأبى رتبة
 حسبي بعلمك ذاك من تفريري
 قسما بمجدك وهو خير ألية
 اعتدها لفؤادي المصدوع
 إني لتصطحب الهموم بمضجعي
 فتحول ما بيني وبين هجوعي
 عطفًا علي بوحدتي عن معشر
 نفت الإباء صدودهم في روعي
 أغدو إذا باكرتهم متجلدا
 وأروح أعثر في فضول دموعي
 حيران أوجس عند نفسي خيفة
 فتسر في الأوهام كل مروع

أطوى على الزفرات قلبا إده

حمل الهموم تجول بين ضلوعي

ولقد أقول لأصرف دهر رابني

بحوادث جاءت على تنويع

مهلا عليك فليس خطبك ضائري

فلقد لبست له أجن دروع

إني ظفرت بعصمة من أوجد

بذ الجميع بفضلته المجموع

وأشيد السلطان أمير المسلمين أبا عبد الله بن أمير المسلمين الحجاج، لأول مرة قدومه إلى غرناطة ليلة الميلاد الكريم، من عام 764.

حي المعاهد كانت قبل تحييني

بواكف الدمع يرويها ويظمني

إن الألى نزحت داري ودارهم

تحملوا القلب في آثارهم دوني

وقفت أنشد صبرا ضاع بعدهم

فيهم وأسأل رسما لا يناجيني

أمثل الربع من شوق وأثمه

وكيف والفكر يدنيه ويقصيني

وينهب الوجد مني كل لؤلؤة

مازال قلبي علي غير مأمون

سقت جفوني مغاني الربع بعدهم

فالدمع وقف على أطلاله الجون

قد كان للقلب عن داعي الهوى شغل

لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني

أحبابنا هل لعهد الوصل مذكر

منكم وهل نسمة عنكم تحييني

مالي وللطيف لا يعتاد زائره
 وللنسيم عليلا لا يداويني
 يا أهل نجد وما نجد وساكنها
 حسنا سوى جنة الفردوس والعين
 أ عندكم أنني ما مر ذكركم
 إلا انتثيت كأن الراح تثيني
 أصبوا إلى البرق من أمحاء أرضكم
 شوقا ولولاكم ما كان يصبيني
 يا نازحا والمنى تدنيه من خلدى
 حتى لأحسبه قربا يناجيني
 أسلى هوائك فؤادي عن سواك وما
 سواك يوما بحال عنك يسأليني
 ترى الليالي أنستك ادكاري يا
 من لم يكن ذكره الأيام تنسيني
 أبعد مر الثلاثين التي ذهببت
 أولى الشباب بإحساني وتحسيني
 أضعت فيها نفيسا ما وردت به
 إلا سراب غرور ليس يرويني

واحسرتا من أمانى كلها خدع

تريش غيبيّ ومر الدهر يبيري

ومنها في وصف المشور المبتى لهذا العهد :

يا مصنعاً شيدت منه السعود حمى

لا يطرق الدهر مبناه بتوهين

صرح يحار لديه الطرف مفتتنا

فما يروك من شكل وتلوين

بعدا لإيوان كسرى إن مشورك السامي

لأعظم من تلك الأواوين

ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه من المغرب لأجله:

من مبلغ عني الصحب الألى تركوا

ودي وضاع حماهم إذ اضاعوني

إني أويت من العليا إلى حرم

كادت مغانيه بالبشرى تحييني

أرح الركاب ففي الصبا نبأ

يغنى عن المستنة الجرد

وسل الربوع برامة خيرا

عن ساكني نجد وعن نجد

مالي تلام على الهوى خلقي

وهي التي تأبى سوى الحمد

لأبيت إلا الرشذ مذ وضحت

بالمستعين معالم الرشذ

نعم الخليفة في هدى وتقى

وبناء عز شامخ الطود

نجل السراة الغر شأنهم

كسب العلا بمواهب الوجد

ومنها في ذكر خلوصه إليه، وما ارتكبه فيه :

لله منى إذ تأوبني

نكراه وهو بشاهق فرد

شهم يفل بواتر قضبا

وجموع أقيال أولى أيد

أوريت زند العزم في طلبي
وقضيت حق المجد من قصدي
ووردت عن ظما مناهله
فرويت من عز ومن رقد
هي جنة المأوى لمن كفلت
آماله بمطالب المجد
لو لم أعل بورد كوثرها
ما قلت هذى جنة الخلد
من مبلغ قومي ودونهم
قذف النوى وتتوفى البعد
إني أنفت على رجائهم
وملكت عز جميعهم وحدي

ومنها :

ورقيمة الأعطاف حالية
موشية بوشائح البرد
وحشية الأنساب ما أنست
في موشح البيداء بالقود
تسمو بجيد بالغ صعدا
شرف الصروح بغير ما جهد

طالت رؤوس الشامخات به
 ولربما قصرت عن الوهد
 قطعت إليك تنانفا وصلت
 إسآدها بالنص والوخد
 تخدي على استصعابها ذللا
 وتبيت طوع القن والقند
 بسعودك اللائي ضمن لنا
 طول الحياة بعيشة رغد
 جاءتك في وفد الأحابش لا
 يرجون غيرك مكرم الوفد
 وافوك أنضاء تقلبهم
 أيدي السرى بالغور والنجد
 كالطيف يستقري مضاجعه
 أو كالحسام يسلم من غمد
 يثنون بالحسنى التي سبقت
 من غير إنكار ولا جحد
 ويرون لحظك من وفادتهم
 فخرا على الأتراك والهند

يا مستعينا جل في شرف

عن رتبة المنصور والمهدى

جازاك ربك عن خليقته

خير الجزاء فنعم ما يسدى

وبقيت للدنيا وساكنها

في عزة أبدا وفي سعد

وقال يخاطب صدر الدولة الوزير عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب.

يا سيد الفضلاء دعوة مشفق

نادى لشكوى البث خير سميع

مالي وللاقصاء بعد تعلقة

بالقرب كنت لها أجل شفيع

وأرى الليالي رنقت لي صافيا

منها فأصبح في الأجاج شروعي

ولقد خلصتُ إليك بالقرب التي

ليس الزمان لشملمها بصدوع

ووثقت منك بأبي وعد صادق

إني المصون وأنت غير مضيع

وسما بنفسي للخليفة طاعة

دون الأنام هواك قبل نزوع

حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم

فصددتهم عني وكنت مني عي

رغمت نفوسهم بنجح وسائلي

وتقطعت أنفاسهم بصنيعي

وإنني ظاعنا لم ألق بعدهم
دهرا أشاكي ولا خصما يشاكي
لا كالتى أخفرت عهدي ليالي إذ
أقلب الطرف بين الخوف والهون
سقيا ورعيا لأيامى الى ظفرت
يداي منها بحظ غير مغبون
ارتاد منها مليا لا يماطلني
وعدا وأرجو كريما لا يعنيني
وهاك منها قواف طيها حكم
مثل الأزاهر في طي الرياحين
تلوح إن جليت درا وإن تليت
تثنى عليك بأنفاس البساتين
عانيت منها بجهدى كل شاردة
لولا سعودك ما كانت تواتيني
يمانع الفكر عنها ما تقسمه
من كل حزن بطي الصدر مكنون

وخاطبه بمناسبة اعتذار ولده سنة 765.

صبحا الشوق لولا عبرة ونحيب

وذكرى تجد الوجد حين تثوب

وقلب أبا إلا الوفاء بعهده

وان نزحت دار وبان حبيب

ولله مني بعد حادثة النوى

فؤاد لتذكّار العهود طروب

ويورقه طيف الخيال إذا سرى

وتذكي حشاه نفحة وهبوب

خليلي إلا تسعدا فدعا الأسي

فإني لما يدعو الأسي لمجيب

ألما على الأطلال يقض حقوقها

من الدمع فياض الشئون سكوب

ولا تعذلاني في البكاء فإنها

حشاشة نفسي في الدموع تذوب

ومنها في تقدم ولده للإعذار من غير نكول :

فيمم منه الحفل لا متقاعس

لخطب ولا نكس اللقاء هيوب

وراح كما راح الحسام من الوغى
تروق حلاه والفرند خضيب

شواهد أهدتهن منك شمائل
وخلق بصفو المجد منك مشوب
ومنها في الثناء على ولد :

هما النيران الطالعان على الهدى
بآيات فتح شأنهن عجيب
شهابان في الهيجا غمامان في الندى
تسح المعالي منهما وتصوب
يدان لبسط المكر مات نماهما
إلى المجد فياض اليمين وهوب

وأنشده ليلة المولد الكريم من هذه السنة :

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهُماً
 فمن لي بأن ألقى الخيال المسلما
 وقد كنتُ استهديه لو كان نافعي
 وأستمطر الأجفان لو تتقع الظما
 ولكن خيال كاذب وطماعة
 تعلل قلبا بالأمانى متيما
 أيا صاحبي نجواي والحب لوعة
 تبيح بشكواها الضمير المكتما
 خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا
 وظبي النقا والبان من أجرع الحمى
 ألا صنع الشوق الذي هو صانع
 فحبي مقيم أقصر الشوق أو سما
 وإني ليدعوني السلوّ تعللا
 وتنهاني الأشجان أن اتقدما
 لمن ديمّن اقفرن إلا هواتفا
 تردد في إطلالهن الترنما

عرفت بها سيما الهوى وتكررت
 فعجت على آياتها متوسما
 وذو الشوق يعتاد الربوع دوارسا
 ويعرف آثار الديار توهما
 تأوبني والليل بيني وبينه
 وميض بأطراف الثنايا تضرما
 أجد لي العهد القديم كأنه
 أشار بتذكار العهود فأفهما
 عجبت لمرتاع الجوانح خافق
 بكيت له خلف الدجى وتبسمما
 وبتّ أرويه كؤوس مدامعي
 وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
 وصافحته عن رسم دار بذي الغضا
 لبست بها ثوب الشبيبة معلما
 لعهدي بها تدني الظباء أو إنسا
 وتطلع في آفاقها الغيد أنجما
 أحن إليها حيث سار بي الهوى
 وأنجد رحي في البلاد وأتهما

قالها يخاطب السلطان أبا سالم، ويلتمس منه الإذن بالعودة إلى موطنه تونس،
عام 763 هـ.

هنيئاً بصوم لا عداه قبول
وبشرى بعيد أنت فيه منيـل
وهنيئاً من عزة وسعادة
تتابع أعوامٌ بها وفصولُ
سقى الله دهرًا أنت إنسان عينه
ولا مس ربعاً في حماك محولُ
فعصرُك ما بين الليالي مواسمُ
لها غررٌ وضاحةٌ وحجولُ
وجانبك المأمول للجود مشرع
يحوم عليه عالم وجهولُ
عساك، وإن ضن الزمان منوليَّ
فرسم الأمانى من سواك محيلُ
أجرني فليس الدهر لي بمسالم
إذا لم يكن لي في ذراك مقيلُ
وأولني الحسنَى بما أنا أمل
فمئتكَ يولي راجياً وينيلُ

ووالله رمتُ الترحل عن قلبي

ولا سخطة للعيش فهو جزيل

ولا رغبة من هذه الدار إنها

لظل على هذا الأنام ظليل

ولكن نأى بالشعب عني حباب

شجاهنَّ خطب للفراق طويل

يهيج بهن الوجد أني نازح

وأن فؤادي حيث هن حلول

عزيز عليهن الذي قد لقيته

وأن اغترابي في البلاد يطول

توارت بأنبائي البقاع كأثني

تخطفت أو غالت ركابي غول

ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى

فطارت بقلبي أنه وعويل

وحييت عن شوق رباك كأنما

يمثل لي نؤي بها وطول

أحبابنا والعهد بيني وبينكم

كريم وما عهد الكريم يحول

إذا أنا لم ترض الحمل مدامعي
 فلا قربتني للقاء حمول
 إلام مقامي حيث لم ترد العلى
 مرادي ولم تعط القياد ذلول
 أجازب فضل العمل يوما وليلة
 وساء صباح بينها وأصيل
 ويذهب بي ما بين يأس ومطمع
 زمان بنيل المعلوات بخيل
 تعلنني عنه أمان خوادع
 ويؤسني ليان منه مطول
 أما لليالي لا ترد خطوبها
 ففي كبدي من وقعهن فلول
 يروغني من صرفها كل حادث
 تكاد له صم الجبال تزول
 أداري على الرغم العدى لا لريبة
 يصانع واش خوفها وعذول
 واغدوا بأشجاني عليلا كأنما
 تجود بنفسي زفرة وغليل

وإني وإن أصبحت في دار غربّة
تحيل الليالي سلوتي وتديلُ
وصدّتي الأيام عن خير منزل
عهدت به أن لا يضام نزيلُ
لأعلم أن الخير والشر ينتهي
مداه وأن الله سوف يديلُ
وأني عزيز بابن ماساي مكثراً
وإن هان أنصارٌ وبان خليلُ

وقال يمدح سلطان تونس أبا العباس ويهديه كتاب العبر :

هل غير بابك للغريب مؤمل

أو عن جانبك للأماني معدل

هي همة بعثت إليك على النوى

عزما كما شحذ الحسام الصيقل

متبواً الدنيا ومنتجع المنى

والغيث حيث العارض المتهلل

حيث القصور الزاهرات منيفة

تعنى بها زهر النجوم وتحفل

حيث الخيام البيض يُرفع للعلا

والمكرمات طرافها المتهدل

حيث الحمى للعز في ساحاته

ظل أفاعته الوشيح الذبـل

حيث الكرام ينوب عن نار القرى

عرف الكباء بحيهم والمندل

حيث الرماح يكاد يورق عودها

مما تعل من الدماء وثنهل

حيث الجياد أمّهن بنو الوغى

مما أطالوا في المغار وأوغلوا

حيث الوجوه الغرّ قَتَعها الحيا

واليشرُ في صفحاتها يتهلل

حيث الملوك الصيّد والتقر الألى

عزّ الجوار لديهم والمنزل

من شيعة المهدي بل من شيعة التوحيد

جاء به الكتاب يفصل

بل شيعة الرحمن ألقى حبّهم

في خلقه فسموا بذاك وفضلوا

شادوا على التقوى مباني عزهم

لله ما شادوا بذاك وأثلوا

قوم أبو حفص أبّ لهم وما

أدراك والفاروق جدّ أول

نسب كما اطردت أنابيب القنا

وأتى على تقويمهن معدّل

سام على هام الزمان كأنه

للفخر تاج بالبدور مكلّل

فضل الأنام حديثهم وقديمهم
 ولأنت إن فضلوا أعز وأفضلُ
 وبنوا على قلل النجوم ووطدوا
 وبنواؤك العالي أشد وأطولُ
 ولقد أقول لخائض بحر الفلا
 والليل مزبّد الجوانبِ أيلُ
 ماض على غولّ الدجى لا يتقي
 تيهاً وذابله ذبالٌ مشعلُ
 متقلبٌ فوق الرحال كأنه
 طيف بأطراف المهاد موغلُ
 يبغي منال الفوز من طرق الغنى
 ويروود مخصبها الذي لا يحملُ
 أرح الركاب فقد ظفرت بواهب
 يعطي عطاء المنعمين فيجزلُ
 لله من يخلق كريم في الندى
 كالروض حياه نديّ مخضلُ
 هذا أمير المؤمنين إمامنا
 في الدين والدنيا إليه المؤئلُ

هذا أبو العباس خير خليفة

شهدت له الشيم التي لا تُجهلُ

مستنصر بالله في قهر العدا

وعلى إعانة ربه متوكلُ

سبق الملوك إلى العلا متمهلاً

لله منك السابق المتمهلاً

فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا

يتسابقون إلى العلا وأكملُ

قايس قديماً منكم بقديمتهم

فالأمر فيه واضح لا يُجهلُ

دانوا لقومكم بأقوم طاعة

هي عروة الدين التي لا تُفصلُ

سائل تلمساناً بها زناة

ومرين قبلهم كما قد يُنقلُ

واسأل بأندلس مدائن ملكها

تخبرك حين استيأسوا واستوهلوا

واسأل بذا مراکشاً وقصورها

ولقد تجيب رسوماً من يسألُ

يا أيها الملك الذي في نعته

ملء القلوب وفوق ما يتمثل

الله منك مؤيداً، عزماته

تمضي كما يمضي القضاء المرسل

جئت الزمان بحيث أعضل خطبه

فافتقر عنه وهو أكلح أعصل

والشمل من أبنائه متصدع

وحمي خلافته مضاع مهمل

والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم

ورجوا صلاح الحال منك وأملوا

فعلته لما انتدبت لأمره

بالبأس والعزم الذي لا يمهل

ذلت منه جامحا لا ينثني

سهلت وعرا كاد لا يتسهل

والنت من شرس العتاة وذدتهم

عن ذلك الحرم الذي قد حالوا

كانت لصولة صولة ولقومه

يعدوا ذؤيب بها وتسطو المعقل

ومهلهلّ تسدي وتلحم في التي
 ما أحكموها بعد فهي مهلهلّ
 عجيب الأنام لشأنهم بادون قد
 قذفت بحيهم المطيّ الذللّ
 رفعوا القباب على العماد وعندها
 الجرد السلاهب والرماح العسلّ
 في كل ضامي الترب متقد الحصى
 تهوي للجهتة الظماء فتتهل
 جن شرابهم السراب ورزقهم
 رمح يروح به الكمي ومنصلّ
 حي حلول بالعراء ودونهم
 قذف النوى إن يظعنوا أو يقبلوا
 كانوا يروعون الملوك بما بدوا
 وغدت ترفه بالنعيم وتخضلّ
 فبدوت لا تلوي على دعة ولا
 تأوي إلى ظل القصور تهدلّ
 طورا يصافحك الهجير وتارة
 فيه بخفاق البنود تظلّ

وإذا تعاطي ضمرا يوم الوغى
 كأس النجيع فبالصهيل تعللُ
 مُخشَوْنَا فِي العز معتملا له
 في مثل هذا يحسنُ المستعملُ
 تقري حشا البيداء لا يسري بها
 ركب ولا يهوي إليها جحفل
 وتجر أذيال الكتائب فوقها
 تختال في السمر الطوال وترفل
 ترميهم منها بكل مدجج
 شاكي السلاح إذا استعار الأعزل
 وبكل أسمر غصنه متأودُ
 وبكل أبيض شطه متهدلُ
 حتى تفرق ذلك الجمع الألى
 عصفت بهم ريح الجراد فزلزلوا
 ثم استملتهم بأنعمك التي
 خضعوا لعزك بعدها وتذللوا
 ونزعت من أهل الجريد غواية
 كانت بهم أبدا تجدُ وتهزلُ

خربت من بنيانها ما شيدوا
 وقطعت من أسبابها ما أوصلوا
 ونظمت من أمصاره وثورته
 للملك عقدا بالفتوح يفصل
 فسددت مطلع النفاق وأنت لا
 تتبو ظباك ولا العزيمة تتكل
 بشكيمة مرهوبة وسياسة
 تجري كما يجري فرات سلسل
 عذب الزمان لها ولد مذاقه
 من بعد ما قد مر منه الحنظل
 فضوى الأنام لعز أروع مالك
 سهل الخليفة، ماجد متفضل
 وتطابقت فيك القلوب على الرضى
 سيان منها الطفل والمتكهل
 يا مالكا وسع الزمان وأهله
 دعة وأمنا فوق ما قد أملاوا
 فالأرض لا يخشى بها غول ولا
 يعدو بساحتها الهزير المشبل

والسفر يجتابون كل تنوفاً

سرب القطا ما راعهن الأجدلُ

سبحان من بعلاك قد أحيا المنى

وأعاد حليَ الجيد وهو معطلُ

سبحان من بهداك أوضح للورى

قصد السبيل فأبصر المتأملُ

فكأنما الدنيا عروسٌ تُجلى

فتميس في حلل الجمال وترفلُ

وكان مطبقة البلاد بعدله

عادت فسيحا ليس فيه مجهلُ

وكان أنوار الكواكب ضوعفت

من نور غرته التي هي أجملُ

وكانما رُفَع الحجاب لناظر

فراى الحقيقة في الذي يتخيلُ

ومنها في العذر عن مدحه :

مولاي غاضت فكرتي وتبدلت

مني الطباع فكل شيء مُشكلُ

تسمو إلى درك الحقائق همتي
فأصدُ عن إدراكهن وأعزلُ
وأجدّ ليلي في امتراء قريحتي
وتعود غورا بينما تسترسلُ
فأبيتُ يعتلجُ الكلام بخاطري
والنظم يشرد والقوافي تجفُّلُ
من بعد حول أنتقيه ولم يكن
في الشعر حولي يعابُ ويهملُ
فأصونه عن أهله متواريا
أن لا يضمهم وشعري محفل
وهي البضاعة في القبول نفاقها
سيان فيها الفحلُ والمتطقلُ
وبناتُ فكري إن أنتك كليله
مرهاء تخطرُ في القصور وتخطلُ
فلها الفخار إذا منحت قبولها
وأنا على ذاك البليغ المقبولُ

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف لخزانتة :

وإليك من سير الزمان وأهله

عبرا يدين بفضلها من يعدل

صحفا تُترجم عن أحاديث الألي

غبروا فتجمل عنهم وتفصلُ

تبدي التتابع والعمالق سرها

وتمود قبلهم وعاد الأولُ

والقائمون بملة الإسلام من

مُضِرَّ وبربرهم إذا ما حُصّلوا

لخصتُ كتب الأولين لجمعها

وأنتيتُ أولها بما قد أغفلوا

وألنتُ حوشيَّ الكلام كأنما

شرد اللغات بها لنطقي ذلُّ

أهديت منه إلى علاك جواهرها

مكونة وكواكبا لا تأفلُ

وجعلته لصوان ملكك مفخرا

يبأى النديّ به ويزهو المحفلُ

والله ما أسرفت فيما قلت

شيئا ولا الإسراف مما يجمُلُ

ولأنت أرسخ في المعارف رتبة

من أن يموه عنده متطفلُ

فملاك كل فضيلة وحقيقة

بيديك تعرف وضعها إن بدلوا

والحق عندك في الأمور مقدم

أبدا فماذا يدعيه المبطُلُ

والله أعطاك التي لا فوقها

فاحكم بما ترضى فأنت الأعدلُ

أبقاك ربك للعباد ترُبُّهم

فالله يخلقهم ورعيك يكفلُ

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس
وتجللتنا رحمة من بـوس
وتوضحت غرور البشائر بعدما
انبهت فأطلعها حداة العيس
صدعوا بها ليل الهموم كأنما
صعدوا الظلام بجذوة المقبوس
فكأنهم بثوا حياة في الورى
نشرت لها الآمال من مرموس
قرت عيون الخلق منها بالتي
أضفت من النعماء خير لبوس
فكأن قومي نادمتهم قرقف
شربوا النعيم لها بغير كؤوس
يتمايلون من المسرة والرضى
ويقابلون أهلة بشموس
من راكب وافي يحيي راكبا
وجليس أنس قاده لجاليس

ومُشَقَّعَ لِّلَّهِ يُوَئِّسُ عِنْدَهُ

أثر الهدى في المعهد المأنوس

يعتد منها رحمة قدسية

فيبوء للرحمن بالتقديس

طبَّ بإخلاص الدعاء وإنه

يشفي من الداء العيا ويوسي

والمعني به إمام الجامع الأعظم، جامع الزيتونة بتونس.

يا ابن الخلائف والذين بنورهم

نُهجت سبيل الحق بعد دروس

والناصر الدين القويم بعزيمة

طرد استقامتها بغير عكوس

هجر المنى فيها ولذات المنى

في لذة التهجير والتغليس

حاط الرعية بالسياسة فانضوت

منه لأكرم مالك وسؤوس

أسد يحامي عن حمى أشباله

حتى ضووا منه لأمنع خيس

قسما بموشي البطاح وقد غدت

تختال زهوا في ثياب عروس

والمائلات من الحنايا جثما

يخبرن عن طسم وقل جديس

خوص مضمرة البطون كأنها

أنضاء ركب في الفلاة حبيس

وخز البلى منها الغوارب والذرى
 فلفتن خزرا بالعيون الشوس
 لبقاك حرز للأنام وعصمة
 وحياة أرواح لنا ونفوس
 ولأنت كافل ديننا بحماية
 لولاك ضيع عهدنا وتتوسي
 الله أعطاك التي لا فوقها
 وحباك حضا ليس بالموكوس
 تعنو القلوب إليك قبل وجوهنا
 سيان من رأس ومن مرءوس
 فإذا أقمت فإن رعبك راحل
 يحمي على الأعداء كل وطيس
 وإذا رحلت فللسعادة آية
 تقتادها في موكب وخميس
 وإذا الأدلة في الكمال تطابقت
 جاءت بمسموع لها ومقيس
 فانعم بملكك دولة عادية
 تُشقي الأعادي بالعذاب البيس

وإليها مني على خجل بها
عذراء قد حليت بكل نـفيس
عذرا فقد طمس الشباب ونوره
وأضاء صبح الشيب عند طموس
لولا عنايتك التي أوليتني
ما كنت أعنى بعدها بطروس
الله ما أبقت ممارسة النوى
مني سوى مرس أحم دريس
أنحى الزمان عليّ في الأدب الذي
دارسئه بمجامع ودروس
فسطا على وفري وروع مأمني
واجتثت من دوح النشاط غروسي
ورضاك رحمتي التي اعتدها
تحيي منى نفسي ونذهب بوسي

وقال يعتذر للملك الظاهر البرقوق :

سيدي والظنون فيك جميلة
وأياديك بالأمني كفيـلة
لا تحل عن جميل رأيك إني
مالي اليوم غير رأيك حيلة
واصطنعني كما اصطنعت بإسدا
ء يد من شفاعة أو وسيلة
لا تضعني فلست منك مضيعا
ذمة الحب، والأيادي الجميلة
وأجرني فالخطب عض بناييه
أجرى إلى حماي خيوله
ولو أنني دعا بنصري داع
كنت لي خير معشر وفصيـلة
أنه أمري إلى الذي جعل الله
أمور الدنيا له مكفولة
وأراه في ملكه الأية الكبرى
فلولاه ثم كان مديله

أشهدته عناية الله في التمحيص
 أن كان عونهُ ومُنِيَاهُ
 العزيز السلطان والملك الظا
 هر فخر الدنيا وعز القبيلة
 ومجير الإسلام من كل خطب
 كاد زلزال بأسه أن يزيله
 ومديل العدو بالطعنة النجلا
 ء تفرّي ماذيه ونصوله
 وشكور لأنعم الله يفني
 في رضاه غدوه وأصيله
 وتلطف في وصف حالي وشكوى
 خلتي يا صفيه وخيالهُ
 قل له والمقالُ يكرم من مثلك
 في محفل العلا أن يقوله
 يا خوند الملوك يا معدل الد
 هر إذا عدل الزمان فصوله
 لا تقصر في جبر كسرى فمازلت
 أرجيك للأأيادي الطويلة

أنا جار لكم منعتم حماه
ونهجتم إلى المعالي سبيله
وغريب أنستموه على الوحشة
والحزن بالرضى والسهولة
وجمعتم من شمله فقضى الله
فراقا وما قضى مأموله
غاله الدهر في البنين وفي الأهـ
ل وما كان ظنه أن يغوله
ورمته النوى فقيدا قد اجتاحت
عليه فروعه وأصوله
فجذبتم بضبعه وأناتم
كل ما شاعت العلا أن تتيله
ورفعتم من قدره قبل أن يشكو
إليكم عيائه وخموله
وفرضتم له حقيقة ودّ
حاش الله أن ترى مستحيلة
همة ما عرفتها لسواكم
وأنا من خبرت دهري وجيله

والعدا نمقوا أحاديث إفاك
كلها في طرائق معلولة
روجوا في شأني غرائب زور
نصبوها لأمرهم أحبولة
ورموا بالذي أرادوا من
البهتان ظنا بأنها مقبولة
زعموا أنني أتيت من الأقوا
ل ما لا يظن بي أن أقوله
كيف لي أغمط الحقوق وأني
شكر نعماكم عليّ الجزيلة ؟
كيف لي أنكر الأيادي التي تع
رفها الشمس والظلال الظليلة ؟
إن يكن ذا فقد برئت من الله
تعالى وخنث جهرا رسوله
طوقنا أمر الكتاب فكانت
لقداح الظنون فينا مجيلة
لا ورب الكتاب أنزله الله
على قلب من وعى تنزيله

ما رضينا بذاك فعلا ولا جنناه
 طوعا ولا اقتفينا دايلاه
 إنما سامنا الكتاب ظلوم
 لا يرجى دفاعه بالحيلة
 سخط ناجز وحلم بطيء
 وسلاح للوخز فينا صقيلة
 ودعوني ولست من منصب الحكم
 ولا ساحبا لديمهم ذيوله
 غير أني وشى بذكري واش
 يتقصى أوتاره ودحوله
 فكتبنا معولين على حلمك
 تمحو الاصار عنا الثقيلة
 ما أشرنا به لزيد ولا عمرو
 ولا عينوا لنا تفصيله
 إنما يذكرون عمن وفيمن
 مبهمات أحكامها منقولة
 ويظنون أن ذاك على ما
 اضمروا من شناعة أو رذيلة

وهو ظن عن الصواب بعيد
وظلام لم يحسنوا تأويله
وجناب السلطان نزهه الله
عن العاب بالهدى والفضيلة
وأجل الملوك قدرا صفوح
يرتجي ذنب دهره ليقيله
فاقبلوا العذر إننا اليوم نرجو
بحياة السلطان منكم قبوله
وأعينوا على الزمان غريبا
يشتكى جذب عيشه ومجوله
جاركم ضيفكم نزيل حماكم
لا يضيع الكريم يوما نزيله
جددوا عنده رسوم رضاكم
فرسوم الكرام غير محيلة
داركوه برحمة فلقد أم
ست عقود اصطباره محلولة
وانحلوه جبرا فليس يرجي
غير إحسانكم لهذي النحيلة

يا حميد الآثار في الدهر يا
 الطنبغايا روض العلا ومقبله
 كيف بالخانقاه ينقل عني
 لا لذنوب أو جناحة منقولة
 بل تقلدتها شغورا بمرسو
 م شريف وخلعة مسدولة
 ولقد كنت آملا لسواها
 وسواها بوعدده أن ينيله
 وتوثقت للزمان عليها
 بعقود ما خلتها محلولة
 أبلغن قصتي فمثلك من يق
 صد فعل الحسنى بمن ينتمي له
 واغنموا من مثوبي ودعائي
 قربة عند ربكم مقبولة
 واصحب العز ظافرا بالأمانى
 واترك العصابة العدا مفلولة
 واعتمل في سعادة الملك الظا
 هر أن تمحو الأذى وتزيله

وتعيد الدنيا لأحسن شمل

حين تضحى بسعده مشمولة

واطلب النصر من ساعدته يصحبك

دأبا في الظعن والحيلولة

وارتقب ما يحله بالأعادي

في جمادي أو زد عليه قليله

وخذوه فألا بحسن قبول

صدق الله في الزمان مقوله

فلقد كان يحسنُ الفال عند المصطفى

دائما ويرضى جميله

خاتمة

الخاتمة :

لقد حاولنا في هذه الرسالة أن ندرس شعر ابن خلدون من خلال ما توفر لنا من قصائد ، ولم يكن الأمر يسيرا حين اقبلنا على تحليل هذا الخطاب الشعري ، لما اتسم به من تداخل الأغراض في النص الواحد دأبه في ذلك دأب القدماء في نظم الشعر من وجهة ، ولاقتصاره على ذكر ما تعلق منه من أحداث تاريخية أو سياسية معينة من وجهة أخرى.

ولما كان لزاما علينا أن نتبع خطة مرسومة ، فقد أفردنا لكل غرض شعري من إنتاجه فصلا مستقلا ، قائما بذاته ، وكان هدفنا من وراء ذلك هو الوصول إلى الكشف عن المميزات العامة في شعر ابن خلدون .

ولن ندعي إطلاقا بأننا قد تناولنا كل ما احتواه شعره من أساليب فنية وجمالية ، وما اشتمل عليه من خصائص ومقومات ، لأن ذلك من قبيل المستحيل ، ومهما تكن النتائج التي توصلنا إليها من خلال تحليلنا لبعض النصوص ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد محاولة أولى ، لعلها تحتاج إلى المراجعة وإعادة النظر .

فقد اتضح لنا من فصول الرسالة الأربعة تضافر الأفكار التي وردت فيها . فبعد التمهيد الذي تحدثنا فيه عن شخصية ابن خلدون

الشعرية ، تناولنا في الفصل الأول غرض المدح والتهنئة ؛ وهو الذي كان غالبا على شعر ابن خلدون كله لما حظي به من مكانة سياسية عالية ، ورتبة علمية رفيعة عند سلاطين المغرب .

أما الفصل الثاني فقد درسنا فيه الاعتذار والاستعطاف في شعر ابن خلدون الذي لم يكثر منهما نظرا لحسن علاقاته بالحكام ، وما كان يتمتع به من حنكة سياسية وحسن تدبير ، فما كان يجد نفسه مضطرا للاعتذار والاستعطاف إلا نادراً .

وخصصنا الفصل الثالث لغرض الشوق الذي كثيرا ما عبر الشاعر فيه عن لوعة البعد وحرقة الحنين إلى الديار والأهل لأنه كان في أغلب أيامه مشغولا بالسياسة بعيدا عن وطنه .

أما الفصل الرابع فقد تناولنا فيه الخصائص الفنية والسّمات البارزة التي شكلت شعرية ابن خلدون .

والجدير ذكره أنّ شعر ابن خلدون يختلف عن شعر كثير من معاصريه ، لاتسامه بالبساطة في الأسلوب ، و العمق في المعاني ، دون أن يخلو من جزالة اللفظ و بلاغته .

ولم يكن الشاعر يجهد نفسه في طلب الأساليب الشعرية الملتوية بقدر ما اهتم بالتعبير عن مواقف معينة عاشها ، وحالات سيكولوجية سجلها في ذلك الشعر .

هذا ولعلنا بهذا العمل ، نكون قد مهدنا الطريق لمن يريد أن يبحث في شعر ابن خلدون ، إذ ليس من شك في أننا لم نحط بكل شيء تعلق بشعره في هذه الدراسة ، وقد يظل كثير من الجهد في هذا المجال مرهونا بالعثور على ما ضاع من شعره ، لانه وحده الكفيل بإمارة اللثام عما يكتنف هذا الشاعر من أسرار ، ولأن الشعر هو المعبر الحقيقي عن صاحبه ، فإننا سنظل ، دونما شك ، جاهلين بجانب من جوانب حياته .

ولئن كان لنا من جهد يذكر هنا ، فهو محاولتنا جمع شعره في هذه الرسالة تيسيرا لدراسة ما نكون قد أغفلناه منه ولم نهتد إليه ، ولعل غيرنا قد يجد في تلك النصوص الشعرية ما لم نتمكن نحن من الوصول إليه . والله من وراء القصد .

المصادر و المراجع

ثبت بمصادر البحث ومراجعته

مؤلفات ابن خلدون:

- 1- التعريف بابن خلدون بيروت - دار الكتاب 1979.
- 2- لمقدمة، بيروت . مطبعة عبد الرحمن محمد لبشير . د ت .
- 3- العبر
- تصحيح وتعليق تركي فرحان المصطفى ، دار احياء التراث العربي
- بيروت ط 1 1999.
- ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن سعيد ، لسان الدين توفي 776 هـ)
- 4- الإحاطة في أخبار غرناطة . تحقيق عبد الله عنان القاهرة ، مكتبة الخانجي 1975 .
- 5- مشاهدات ابن الخطيب في بلاد لمغرب والأندلس .
تحقيق أحمد مختار العبادي - الإسكندرية 1985.
- 6- نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب .
تحقيق أحمد مختار العبادي - القاهرة دار الكتاب 1968.
- ابن الأحمر .
- 7- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان .
تحقيق محمد سعيد الحريان - دار الثقافة بيروت 1967.
- الدرامي (أبو حامد) .

8- المقتضب في أشعار أهل لمغرب . القاهرة - دار المعارف
1951.

ابن أبي عامر .

9- ابن خلدون (أبو زكريا يجيى)

بغية الرواد ، في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق عبد الحميد
حاجيات ، الجزائر ، 1980 المكتبة الوطنية.

10- المقتطف من أخبار المغرب . القاهرة - مطبعة صبيح وأولاده
1951.

المقري (أبو العباس أحمد ، ت 1014هـ)

11- نفخ الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار الصادر - بيروت
1988

ابن رشيق (أبو العلي حسن ، ت 456هـ)

12- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق . محمد قرقران در
لمعرفة - بيروت ، د ت

ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم القيرواني ت
1110هـ).

13- المؤنس في أخبار إفريقية و تونس ، مطبعة النهضة - تونس
1350 هـ .

الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم توفي بعد 932 هـ).

- 14- تاريخ الدولتين : الموحدية و الحفصية. تحقيق محمد ماضور ، ط .المطبعة العتيقة ، تونس 1966.
- الغبريني (أبو العباس أحمد بن محمد) توفي 704 هـ .
- 15- مرتاض محمد
- مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية 1998م.
- 16- عنوان الدراية . تحقيق رابح بونار ، ش و ت ت - الجزائر 1970 .
- ابن فرحون (إبراهيم بن علي توفي 799 هـ).
- 17- الذبيح المذهب ، ط 1 . شقرون ، القاهرة 1351 .
- ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية ، توفي 1025 هـ).
- 18- جدوة الاقتباس في أخبار مدينة فاس ، ط المغرب الحجرية.
- ابن مريم (أبو عبد الله محمد ، توفي بعد 1014 هـ)
- 19- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، ط المطبعة التعاليلية ، الجزائر 1908.
- الأندلسي (أبو الحسن علي بن سعيد)
- 20- الفصوص الياصرة في محاسن شعراء المئة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار المعارف - مصر .
- عمر الدقاق
- 21- ملامح الشعر الأندلسي ط 3 . حلب ، 1977.
- الكتاني (محمد بن جعفر بن أدريس . توفي 1345م).
- 22- سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس . ط المغرب الحجرية .

- 23- السياسة والدين عند ابن خلدون .
ترجمة موسى وهبة وشوقي الدويهي . دار الفرابي ، بيروت 1980
ط1.
عبد الله كنون .
- 24- النبوغ المغربي .
ط2 بيروت ، دار الكتاب 1961.
محمد طه الحاجري .
- 25- دراسات و صور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي .
دار النهضة العربية ، بيروت ط1 1983.
حسين محمد سليمان .
- 26- التراث العربي الإسلامي ، ديوان مج ، الجزائر
محمد بن زاكور .
- 27- نشر أشجار البستان في اجازتي بالجزائر وتيطوان. مطبعة
الجزائر 1902.
رابح بونار .
- 28- المغرب العربي تاريخه وثقافته . ش و ن ت لجزائر 1968.
الطاهر التوات .
- 29- أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن .
الجيلالي تكوك .

30- الحياة الثقافية والأدبية في عهد بني عبد الواد.
حاجيات عبد الحميد.

31- أبو حمو موسى الزياني.

عباس الجراري .

32- لأدب العربي من خلال ظواهره وقضاياها.

ألفريد بل . Alfred Bel

33- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد لرحمن

بدوي ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987. ط3 .

مصطفى الشكعة .

34- منهاج التأليف عند العلماء العرب – دار العلم للملايين ، ط10

سنة 1997.

عبد الله حمادي .

35- دراسات في الأدب العربي القديم – دار البعث ، قسنطينة

1986.

عمر بن قينة.

36- أدب المغرب العربي قديما – ديوان المطبوعات الجامعية ،

الجزائر 1994.

عبد القادر جغلول.

37- لإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون

، ط2 – دار الحدائثة لبنان ، ترجمة فيصل عباس.

عنان (عبد الله محمد)

38- تراجم إسلامية ، شرقية وغربية ، ط 2 . القاهرة 1970.

العروي عبد الله

39- عبد تاريخ المغرب .

ترجمة نوقان قرقوط ، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،
بيروت 1977.

ملحم قربان

40- خلدونيات ، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر ، ط 1 بيروت .
1984 جزءان .

بورويبة رشيد

41- ابن تومرت

ترجمة ، عبد الحميد حاجيات ، د.م.ج . الجزائر 1982.

شريط عبد الله

الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، ش و ن ت الجزائر 1975.

قاستون بوتول

42 – ابن خلدون

ترجمة عادل زعيتير ، م.ع.د.ن ط 2 . بيروت 1984.

الوردي علي

43- منطق ابن خلدون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،

القاهرة 1962.

فروخ عمر

44- عبقرية العرب في العلم والسياسة . المكتبة العلمية ، بيروت ط
2. 1952.

كارادوفو

45- مفكر و الإسلام ، ترجمة عادل زعيطر ، القاهرة ، الدار
المتحدة للنشر ، ط 1 1979 .

عمر فاروق الطباع

46- ابن خلدون : في سيرته وفلسفته التاريخية والاجتماعية ،
مؤسسة المعارف بيروت 1977 ط.1.

عبد الرحمن مرحبا

47- جديد في مقدمة ابن خلدون ، منشورات عويدات ، بيروت
1989 ، ط.1.

48- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة . عويدات ، بيروت ، 1983 ط
3

إحسان عباس .

49- دراسات في الأدب الأندلسي .

محمد الطمار .

50- تاريخ الأدب الجزائري ، الجزائر ش.و.ن.ت .

محمد بن عبد الكريم .

51- المقري وكتابه نفح الطيب .

علي بن محمد

52- ابن بسام الأندلسي وكتاب الذخيرة ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989 .

الدوريات :

1. الأصالة ، عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحضارتها ، العدد

26 . قسنطينة – أوت 1975م.

2. دراسات ، سميائية

مجلة مغربية ن العدد الأول الدار البيضاء ، 1987م

3. معالم ، قضايا المنهج في اللغة والأدب – دار توبقال للنشر،

الطبعة الأولى ، الدار البيضاء 1987م.

4. مرتاض محمد

شعر الفقهاء في المغرب العربي .

رسالة دكتوراه ، جامعة تلمسان 1994م

5. Abdessaleam Cheddadi

Le voyage d occident et d orient

Sindbad.Paris 1980.2nd ed.

فهرس الموضوعات

* كلمة شكر

* مقدمة : أ

* تمهيد :

الوجه الثاني لابن خلدون 1

* الفصل الأول :

المدح في شعر ابن خلدون 16

* الفصل الثاني :

الاعتذار في شعر ابن خلدون 59

* الفصل الثالث :

التشوق والحنين عند ابن خلدون 91

* الفصل الرابع :

المقومات الفنية لشعر ابن خلدون 109

* ملحق :

جمع لشعر ابن خلدون 126

* خاتمة 179

* مصادر البحث ومراجعته 183

فهرس الموضوعات 191

